محمد عبد الرحمن عوض

الخلاص من الخطيئة

في مفهوم اليهودية والمسيحية والإسلام

فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا

الخلاص من الخطية

دار البشير - القاهــرة
للطباعة والنشر والتوزيع
١٤٥ طريق المعادى الزراعي ص. ب ١٦٩ المعادى ت : ٥٢٤٢٦٨٧
٥٢٥٢٣٩٠

محمد عبد الرحمن عوض

الخلاص من الخطيئة

في مفهوم اليهودية والمسيحية والإسلام

دار البشير
القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾.

(الآية ٤١ من سورة إبراهيم)

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

(الآية ٢٨ من سورة نوح)

مقدمة

الحمد لله الذى أرسل الرسل لهداية الخلق ، وجعل العقل مناط التكليف فى البشر .. فمن اكتمل عقله وجب عليه الإيمان .. وإلا فلا تكليف ولا مساءلة ..

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يُحيى ويُميتُ وهو على كل شيء قدير .. وأشهد أنّ محمداً عبد الله ورسوله .. اختاره الله للرسالة الخاتمة فتمت به نعمة الله على خلقه .

ثُمَّ أما بعد ... فلقد شغلنى حديث الخطيئة والتوبة منها منذ زمن ، إذ رأيت الواحد منا – نحن البشر – يندفع إلى الخطأ ثم تعتريه بعض حالات الندم ، وقد تتطور إلى لوم للنفس ثم إلى عزيمة على الإقلاع .. ولكن الفرد لا يلبث كثيراً حتى تُنازعه نفسه إلى الخطأ .. وقد يقع فيه أو ينجو منه .. وإنْ وقع فيه عاودته حالات الندم .. وإنْ نجا منه عاودته النزعة إلى إتيانه .. حركة مستمرة لا تخمد فى النفس البشرية إلا مع سكرات الموت ..

ولقد عشتُ كثيراً مع آيات التوبة فى القرآن الكريم فكانت واحة فيحاء .. ترد اليأس عن النفس ، وتفتح أمامها أبواب الرجاء ، وتتعامل معها فى إيقاعات مؤثرة : من تحذير من النسيان .. إلى ترهيب من سوء العاقبة .. إلى ترغيب فى حسن الثواب .. ثم بيان للفضل الإلهى .. العظيم .

ولعلك تُحس اليد الحانية تمسح على رأس المذنبين ، والبسمة الرقيقة تفتح لهم أبواب الأمل حين تقرأ قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الأنعام : ٥٤)

ونجد نفس الروح الحانية فى السنة النبوية الشريفة ، ولقد دفعنى ذلك إلى أنْ أتحسس الطريق الذى ترسمه الديانات السماوية للخلاص من الخطيئة ، فكانت هذه الدراسة الموجزة التى حرصتُ على أنْ أوضح فيها الحقائق مستقاة من مصادرها .

ولم يمنعني ذلك من التعليق على بعض الأمور التي تقتضي التعليق ، دون تجريح لأحد أو تهجم على أحد ؛ لأن هدفنا العرض الموضوعي للحقائق .. والباب بعد مفتوحٌ لأي رد أو تعقيب .. ونحن نرحب بالتوجيه والنقد إذا كان هدفهما الوصول إلى الحقيقة المجردة .

هذا وقد عَرضتُ لمفهوم الخطأ من وجهة نظر اليهود مستمدة من نصوص كتبهم وأقوال علمائهم وقادتهم .. وعقّبنا على بعض النقاط بما رأيناه .. ثم عَرضتُ لمفهوم الخطيئة من وجهة نظر المسيحيين مستمدة أيضاً من كتبهم وأقوال علمائهم .

وهذا موضوع شائك اقتضانا أن نُقدِّم له ببعض التمهيدات .. كمناقشة موضوع تحكيم العقل في الإيمان ، وموضوع الإلهية ، وخضوع الإله للمادة ، وذلك لأن للمسيحية الحالية وجهة نظر خاصة في مثل هذه الموضوعات ، ولهذا عرضنا لها - ولغيرها - مما استوجب البحث التعرض له ثم عقّبنا على بعض النقاط بما هو أهل له .. سواءً بالعقل أو النقل .

ثم عرضتُ لمفهوم الخطأ الإنساني كما يعرضه الإسلام .. وبدأتُ بالحديث عن خطيئة آدم وكيف أنها انتهت بالتوبة عليه من الله تعالى .. ثم انتقلتُ إلى الحديث عن خطايا البشر وكيفية الخلاص منها والعودة إلى الله تعالى .. واستشهدتُ في كل ذلك بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

أرجو الله تبارك وتعالى أنْ ينفع بهذا البحث ، وأنْ يجعله بداية خير لمن قرأه .. كما أسأله سبحانه أنْ يجعل هذا البحث في ميزان حسناتنا يوم القيامة .

والحمد لله ربِّ العالمين ..

المؤلف





الخطيئة فى مفهوم التوراة

التوراة كتاب اليهود المقدس ، ويرون أنه كُتب على عهد موسى – وعلى الأخص الأسفار الخمسة المنسوبة إليه – ولا يعتدون كثيراً بما يثيره المخالفون لهم من أنَّ التوراة قد ضاعت ولم يبقَ منها إلا حكايات أقرب إلى القصص الشعبى والأساطير ، ويرى اليهود أن عزير [١] قد أعاد كتابة التوراة كتابة موثقة ، ولهذا فهم يرفضون أى حديث حول ادعاء التحريف الذى يرفعه أعداؤهم فى وجـوههم ، ولسنا الآن فى معـرض بيان التحـريف أو التبديل – وإن كنا نعتقده كما أخبرنا القرآن الكريم – ولكننا سنحاول هنا إظهار مفهوم الخطيئة والخلاص منها كما يراه اليهود .

١ – محور الحياة فى نظر اليهود

جعل اليهود محور حياتهم نظرية الاصطفاء أو شعب الله المختار .. وهى نظرية لها أصل فى الدين .. حيث اختار الله سبحانه وتعالى بنى إسرائيل وخصهم بمزيد من العناية الإلهية فأرسل لهم الرسل وصنع لهم الكثير من المعجزات ، وكانوا قد دخلوا مصر بقيادة يوسف عليه السلام وعاشوا فيها بين أهلها ، ومرت بهم الأيام حتى ضُرب عليهم الاستعباد كما ضُرب على أهل مصر جميعاً ، وشاءت العناية الإلهية أن يرسل موسى بن عمران وأخاه هارون عليهما السلام إلى فرعون وملئه ، حيث وصل الطغيان بفرعون أن ادَّعى الإلهية وطالب الناس بعبادته ، وكان بنو إسرائيل ضمن هؤلاء الخاضعين لفرعون . وقد أرسل الله تعالى نبيه موسى لتحقيق هدفين هما :

(١) هو الذى يدعوه اليهود « عزرا » وهو الذى ورد ذكره فى القرآن : ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِى هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ... ﴾ ، ويرى اليهود أن عُـزيراً هو الذى دوَّن التوراة تدويناً موثقاً .

* دعوة فرعون وقومه إلى الدين الحق .

* تخليص بنى إسرائيل من العبودية .

ولم تتحقق الهداية لفرعون وقومه حيث طغى عليهم سلطانهم ومكانتهم فاغتروا بها ولم يستجيبوا لنصح الناصحين .. وعزّ عليهم أنْ يؤمنوا برسالة جاء بها اثنان من أبناء المستعبدين وقد بيّن ذلك القرآن فى حكايته عن فرعون وملئه ، قال تعالى : ﴿ **قَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ** ﴾ (المؤمنون : ٤٧)

وقد شاءت العناية الإلهية أن يتخلص بنو إسرائيل من نير العبودية على يد موسى عليه السلام بعد أن أغرق الله فرعون وجنوده أمام أنظار بنى إسرائيل .. وبهذا استؤنف عهد الاصطفاء أو الاختيار الذى تفضل الله به على بنى إسرائيل .. ومن هذا العهد يبدأ سفر الخروج فى التوراة يحكى قصة هذا الاصطفاء .. من وجهة النظر اليهودية .

ويرى اليهود أنهم (شعب الله المختار) وهذا يعنى أنهم يتميزون عن سائر الأجناس البشرية تميزاً طبيعياً .. فى الدم والجنس والفكر والأهلية .. فى كل شىء ، لذلك فهم يُطلقون على غيرهم لفظ « الجوييم » وهو يعنى الأمم الأخرى غير بنى إسرائيل . وهؤلاء لهم اعتبارات وحيثيات تختلف عن اعتبارات بنى إسرائيل وحيثياتهم فاليهود ينظرون إليهم فى استعلاء . ويعتبرون ديارهم كالحظائر والساكنون فيها نوع من البهائم لا قيمة لهم .. وهذه الاعتبارات لها أسانيدها المقدسة فى عُرف اليهود .. وليس هذا مجال التفصيل فى ذكرها .

والمهم أنَّ قضية « الشعب المختار » أو نظرية الاصطفاء صارت عند اليهود - وبمنطوق التوراة - هى محور الحياة وهدفها .. من بدايتها إلى نهايتها .. بل إنَّ الرب فى عُرفهم ليس له هَمٌّ إلا أنْ يكون فى خدمة هؤلاء المختارين .. ومن منطلق هذه العقيدة يتحدد معنى الخطيئة عند اليهود .

٢ - الخطيئة عند اليهود

إنَّ كلَّ ما يمس الشعب المختار بسوء هو خطيئة فى عُرْفهم ، وأما إذا كان الأمر فى صالح الشعب المختار فهو خير محض . « إنَّ الوصية القائلة (لا تقتل) معناها لا يجوز لك أن تقتل إسرائيلياً » . وتأييداً لهذه النظرية يرددون : « إنَّ ولداً أجنبياً شتَّاماً وعابداً للأصنام قتل غير اليهودى وضاجع امرأته يتبرأ إذا اتبع الدين اليهودى بعد ارتكابه كل

هذه الموبقات ، ولكن إذا قتل يهودياً ثم انتحل الدين اليهودى فإنه يظل دائماً أثيماً وإعدامه واجب » [١].

واليهود يعتبرون شعوب الأرض أشراراً ، ويعتبرون الإحسان إليهم خطيئة، يقول التلمود: « كل خير يصنعه أبناء إسرائيل وجميع الإحسانات التى يوزعونها على الأغيار ، والمحبة التى يستعملونها نحوهم ، هذه كلها خطايا على اليهود ؛ لأنهم يعملونها تباهياً وتبجحاً [٢] فضلاً عن أن أهل الغرلة وثنيون وأناس بدون إيمان لا ذمة لهم ولا ذمام ، وكذلك أهل الختان من الإسلام لا يشذون عن هذه القاعدة لأنهم ليسوا أخياراً » [٣].

ولنسمع إلى إحدى وصايا الربانى ناتاسون المتوفى فى (لانبرج) حيث يقول : « من الفطنة الانقطاع عن المراقص ؛ لأنَّ فى ذلك خطيئتين : أثواب الراقصات تثير كوامن الشهوات القبيحة ، وجمالهن الذى يسترق منا عبارات المدح والثناء ، وهذان الأمران ممنوعان بتاتاً إذا كانت الراقصات غير يهوديات » [٤].

ويعلن التلمود : « أنَّ تجارة البغاء بالأجنبى أو الأجنبية ليست إثماً لأن الشريعة هى براء منهما كما قيل : زرعهم من زرع البغال .. » [٥].

وهكذا يتضح مفهوم الخطيئة عند اليهود كما ذكرناه فى أول هذه الفقرة ، مجرد مصلحة لليهود .. فالمصلحة عندهم تعنى أنه لا خطيئة ، وأما ما يمسهم بسوء أو يمس غيرهم بخير فهو خطيئة فى نظرهم .. وجريمة تستحق العقاب .

٣ – الإله وبنو إسرائيل

لم يقابل اليهود نعمة الاصطفاء بالشكر .. بل قابلوها بالجحود .. فبدلاً من أن يتوجهوا للإله بالعرفان إذ جعلهم شعباً مختاراً جعلوا من الإله مسخاً يرتبط بأهوائهم ، وسخروه ليعمِّقوا فى نفوسهم الشعور بالأنانية .

---

(١) همجية التعاليم الصهيونية : بولس حنا مسعد ص ٩٦ .

(٢) أى يخالفون التعاليم المقدسة عندهم .

(٣) المرجع السابق ص ٦٩ . والغرلة تعنى عدم الختان ، والختان شريعة عند اليهود وهو كذلك عند المسلمين بعكس النصارى .

(٤) السابق ص ٦٦   (٥) السابق ص ١٠٣ .

ولنستعرض الصورة التى يرسمها التلمود عن نشاط الله وأعماله فى الليل والنهار [1] ، فإنَّ الله تعالى يقضى الساعات الثلاث الأولى من النهار فى مذاكرة الشريعة – كما يزعمون – والساعات الثلاث الثانية فى تدبير شئون الحكم بين الناس .. والساعات الثلاث الثالثة فى تدبير العيش للخلق ، وأما الساعات الثلاث الأخيرة من النهار فيقضيها فى اللعب مع الحوت ملك الأسماك .

وأما ساعات الليل فيقضيها الإله – حسب زعمهم – فى مذاكرة التلمود مع الملائكة ومع ملك الشياطين الذى يصعد إلى السماء كل ليلة ثم يهبط منها إلى الأرض بعد انتهاء هذه الندوة العلمية .

وهذا النظام كان قبل هدم الهيكل وتشريد بنى إسرائيل ، أما بعد هدم الهيكل والشتات فقد تغير هذا النظام .. فقد اعترف الإله بخطئه – سبحانه – فى هذا الصدد وندم على ما فعله وخصص ثلاثة أرباع الليل للبكاء والندم .

وإذا كان الإله – سبحانه وتعالى – قد ندم حين أصاب بنى إسرائيل بضرر .. فَمِنْ باب أولى على كل إنسان أن يحترس حتى لا يصيب بالضرر أحداً من بنى إسرائيل ، وهكذا نجد أنَّ اليهودية قد جعلت الإله فى خدمة الأنانية اليهودية .

ويزعم التلمود [2] أنَّ الله يردد فى أثناء بكائه ونحيبه عبارات تدل على ندمه على ما فعل فيقول : « تبًّا لى إذ أمرتُ بخراب بيتى وإحراق الهيكل وتشريد أولادى » .

ويقول حينما يسمع الناس يُمجِّدونه : « طوبى لِمَنْ يُمجِّده الناس وهو مستحق لذلك ، وويل للأب الذى يُمجِّده أبناؤه مع عدم استحقاقه لذلك ؛ لأنه قضى عليهم بالتشريد والشقاء ... » .

وهكذا نلمس ما فى هذه الإشارات من مسخ وتشويه لا يُمكن أن يصدر عن عقيدة سليمة ، وإنما هى أشد تعبيراً عن جماعة من النصابين أو اللصوص الذين أجادوا التخطيط وتفننوا فى خديعة أتباعهم كما سنرى .

٤ – اليهود والاغتصاب

يذكر سفر التكوين عن يعقوب أنه لقى الله ذات ليلة وأخذ يصارعه حتى بزغ الفجر

(١) إسرائيل والتلمود إبراهيم خليل ص ٤٥ . (٢) المرجع السابق .

بدون أن يجد الله سبيلاً إلى التغلب على يعقوب ، وحينئذ ضرب حَقّ يعقوب فانخلع ، ولما بلغ الوهن من الله مبلغه طلب إلى يعقوب أن يخلي سبيله لأنه قد طال أمد المصارعة وطلع الفجر ، ولكن يعقوب لم يقبل أن يطلقه إلا إذا باركه فقبل الله تعالى شرطه وباركه وسأله عن اسمه فقال : يعقوب ، فقال الله : لن تسمّى بعد الآن يعقوب بل تسمّى إسرائيل ذلك أنك كُنتَ قوياً على الله » [1] .

وهذه الصورة توحى بمدى تأصيل مبدأ الاغتصاب في نفسية اليهود .. ذلك أنهم ما أخذوا لقب « إسرائيل » إلا بالعنف والإجبار .. لقد أخذوه من إلههم مقابل إطلاق سراحه .. وإنقاذاً له من قبضة يعقوب الذى صار قوياً على الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ولا عجب – بعد ذلك – إذا وجدنا تلك البركة المسروقة تمتد إليها يد الخديعة والسرقة مرة أخرى .. فقد شاخ إسحاق ووهنت قوته وأحس بقرب أجله فطلب من ابنه البكر « عيسو » أن يأتيه بصيد ويقدّمه له طعاماً ليباركه .. وهنا تتآمر (رفقة) مع يعقوب وتدخله على أبيه بطعام يحبه على أنه عيسو ، وقد عاد بالصيد المطلوب ليحصل من أبيه على تلك البركة .

تقول التوراة : فدخل (أى يعقوب) إلى أبيه وقال : يا أبى ، فقال : ها أنذا ، فقال: مَنْ أنت يا بنى ، فقال يعقوب لأبيه : أنا عيسو بكرك ، قد فعلت كما كلّمتنى ، قمْ اجلس وكُلْ من صيدى لكى تباركنى نفسك ، فقال إسحاق لابنه : ما هذا الذى أسرعت لتجد يا ابنى ؟ فقال : إنّ الرب إلهك قد يسّر لى ، فقال إسحاق ليعقوب : تقدم لأجسّك يا ابنى أأنت هو ابنى عيسو أم لا ؟ (وكانت رفقة أمه التى كانت تحبه أكثر من عيسو قد كسته جلد الماعز حتى يظن إسحاق أنه عيسو الذى كان ذا شعر كثيف فى جسده ويديه ورقبته) فتقدم يعقوب إلى إسحاق أبيه فجسّهُ وقال : الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو ولم يعرفه لأن يديه كانتا مشعرتين كيدى عيسو أخيه .. فباركه ، ولما جاء عيسو وأخذ يصرخ قال له إسحاق : « قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك ... » [2] .

(١) انظر : سفر التكوين (أصحاح ٣٢) . وراجع : اليهودية واليهود ، تأليف د. على عبد الواحد وافى ، ص ٣٧ .

(٢) نقلاً عن اليهود واليهودية والإسلام ، د. عبد الغنى عبود . والتوراة ، د. مصطفى محمود ، وهناك أمثلة أكثر من ذلك على جرائم التحايل .

وهكذا تنمو وتترسخ أسس الاغتصاب والتحايل فى النفس اليهودية .. دون أن يكون هناك أدنى حرج فى ممارستها فى السلوك اليهودى ، لأنها ترتكز على أساس مُقدس .. ولعل هذا ما يوضح مدى استراحة اليهودى للخديعة وعدم شعوره بالذنب حينما يقترف جريمة الاغتصاب والتحايل .

٥ - خطايا الأنبياء

رأينا كيف أباح اليهود لأنفسهم أن يتخيلوا إلههم تلميذاً على مائدة التلمود لاهياً مع الحوت ، نادماً على ما ارتكبه فى حقّ اليهود من تشريد وتدمير للهيكل .. فهو يبكى لذلك ، بل ويزعمون أنّ الله جعل « قوس قزح » علامة تذكّره بألا يُصيب الناس بمكروه أو يغرقهم بالطوفان مرة أخرى .. وهكذا .

وإذا كان اليهود قد أباحوا لأنفسهم كل هذه الخيالات بالنسبة لله تعالى ، فإنهم لم يتورعوا عن أن يلطخوا سيرة الأنبياء تلطيخاً يتنافى مع مكانتهم كقادة للإنسانية ، وكيف يتورعون عن تلطيخهم سيرة أنبيائهم وهم لم يتورعوا عن قتلهم والتنكيل بهم كلّما استطاعوا ؟!!

ويُرجع بعض الباحثين هذا الموقف إلى أن الأنبياء هم كبش الفداء فى التوراة .. فكلما اشتدت وطأة الاضطهاد على اليهود لم يجدوا أمامهم غير أنبيائهم ينزلون فيهم قتلاً وتشريداً وتلطيخاً وتحريفاً وتزييفاً . لم ينجّ واحد من الأنبياء الأول الأكابر من التلطيخ ، فنوح يسكر حتى يفقد وعيه ، ولوط يضاجع بناته وهو سكران ، ويهوذا يزنى بامرأة ابنه ، وداود يشتهى زوجة الضابط أوريا فيزنى بها ويرسل زوجها للقتل .. أما بيت داود النبى العظيم فهو أشبه ببيت سرّى .. الأخ يغتصب الأخت ، والابن يضاجع زوجات أبيه فى عين الشمس .. وأما سليمان فيختتم حياته المجيدة — فى زعمهم — بعبادة الأصنام ، وهارون يصنع العجل من الذهب ويعبده [(١)] .

ولعل اليهود أرادوا بمثل هذه المواقف أن يجدوا لأنفسهم المبرر والعذر فى ارتكاب المآثم والجرائم المختلفة دون أن يكون هناك ما يردعهم عنها من ضمير أو سلطان مقدس .

(١) التوراة د. مصطفى محمود ص ٥٧ وما بعدها ، ولقد ردّ القرآن الأمر إلى نصابه فى مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا .. ﴾ . وبيّن أن العجل صنعه السّامرىّ لا هارون .

الخطايا المسموح بها (١)

لعل من أهم ما يلفت النظر – وسبق أن أشرنا إليه – أنَّ أى جريمة لا تكون لها هذا المفهوم إلا إذا مسَّت اليهودى ، أما إذا قصدت غير اليهودى فإنها – حينئذ – تكون عملاً محموداً يُثاب فاعله ولا يُعفى تاركه من المساءلة .. فالقتل والسرقة والزنا والتدمير.. كل هذه الأمور يجب على اليهودى أنْ يفعلها بلا حرج مع الأمميين .. وعليه أن يحذر اقترافها مع بنى جنسه من اليهود .

وعلى هذا فلا يستطيع الإنسان أن يصل إلى مفهوم حقيقى للخطيئة لدى اليهود .. ذلك أن محور حياتهم يدور حول الاصطفاء ، فهم بعقيدة « الشعب المختار » ينظرون إلى الأمور .

وعلى هذا رأينا أن الخطيئة ذات وجهين وجه صالح وآخر سيئ .. وكذلك يُمكن أن ندرك نفس الوجهين للإحسان فيُمكن أنْ يكون له وجه حسن إذا قدَّمه اليهودى لليهود، أما إذا قدّمه لغير اليهود – وهو يستطيع منعه عنهم – فهو آثم ، وأمـا إذا كانت الظروف لا تسمح له بمنع الإحسان عن الآخرين فهو يُقدّمه لهم على كره منه وضيق .

وهذا ما تنطق به كلمات التلمود .. وهو يفوق فى قدسيته التوراة . (وقد رأينا كيف زعموا أنَّ الله يقضى بعض الساعات فى مدارسة التلمود مع الملائكة وملك الشياطين .. وهو لا يفعل ذلك مع التوراة) . ومما يقرره التلمود فى هذا الشأن :

* إذا جاء الأجنبى والإسرائيلى أمامك بدعوى، فإذا أمكنك أن تجعل الإسرائيلى رابحاً فافعل ، واستعمل الغش والخداع فى حقّ الأجنبى حتى تجعل الحقّ لليهودى .
* مصرح لك أن تغش مأمور الجمرك غير اليهودى .. وتعلّم من الحاخام صموئيل الذى اشترى من أجنبى آنية من الذهب ظنها الأجنبى نحاساً ودفع الحاخام ثمنها أربعة دراهم فقط ثم سرق منها درهماً .
* يأمر الله بأخذ الربا من غير اليهودى، وألا تقرضه إلا تحت هذا الشرط – أى بالربا– وبدون ذلك نكون قد ساعدناه ، على أنه من الواجب علينا ضرره .

(١) راجع : إسرائيل والتلمود دراسة تحليلية ، تأليف إبراهيم خليل أحمد ، ص ٥١ وما بعدها .

* اقتلْ الصالح من غير اليهود، ومحرَّم على اليهودى أن يُنجى أحداً من الأجانب[1] .

* اليهودى لا يخطىء إذا اعتدى على عِرْض الأجنبية ؛ لأن كل عقد نكاح عند الأجانب فاسد ؛ لأن المرأة غير اليهودية تُعتبر بهيمة والعقد لا يُوجد بين البهائم .

وهكذا نجد أن الجريمة حلال لليهود على طول الخط مع غير اليهود ، وهى حينئذ تُعدُّ قُرباناً إلى الله تعالى .

كما يُقرر التلمود أنه « مصرح لليهودى أن يُسلم نفسه للشهوات إذا لم يُمكنه مقاومتها » .

* اللواط بالزوجة جائز لليهودى؛ لأنَّ الزوجة بالنسبة لليهودى للاستمتاع بها كقطعة اللحم .. يمكنه أن يأكلها مسلوقة أو مشوية حسب رغبته .

تستطيع أخى القارئ أن تتذكر الآن كيف عمل اليهود على أن يحددوا نظم التشريع حسب المصلحة الخاصة بهم بحيث نجد فى النهاية أنَّ اليهودى مسموح له أن يفعل كل شىء حسب رغبته وهواه ، إما علانية أو عن طريق الخداع والمخاتلة .

اليهود والذبائح البشرية[2]

هذا نموذج لخطيئة فظيعة تحملها الشرائع اليهودية قد جاء فيها : « الذين لا يؤمنون بتعاليم الدين اليهودى وشريعة اليهود ، يجب تقديمهم قرابين إلى إلهنا الأعظم » .

« عندنا مُناسبتان دمويتان تُرضيان إلهنا يهوه ؛ إحداهما عيد الفطائر الممزوجة بالدماء البشرية ، والأخرى مراسيم ختان أطفالنا » .

ويُحصَل على دم بشرى من أجل « الفطيرة المقدسة » ويُخلط بالدقيق الذى تُعدُّ منه فطائر عيد الفصح ...

وقد ورد فى سفر أشعيا ما يُعتبر أصلاً لهذه العادة البشعة ، أو قُلْ الجريمة النكراء التى لا تقرها شريعة ، وإذا كانوا يعدون هذا العمل قربى إلى إلههم فإنه لا يدل إلا على قسوة

(١) يستند اليهود إلى ما جاء فى التوراة (خروج ١ : ١١ -١٢) ، (تكوين ٣٤ : ١٠-٧) .

(٢) راجع : اليهود والقرابين البشرية ، تأليف محمد فوزى حمزة ، وهو معزز بالوثائق ، دار الأنصار القاهرة .

القلوب وغلظ الرقاب .. تقول التوراة : « .. أما أنتم أولاد المعصية نسل الكذب المتوقدون إلى لأصنام تحت كل شجرة خضراء ، القاتلون الأولاد فى الأودية تحت شقوق المعاقل ».
(أشعيا ٥٧ : ٤ – ٥)

وعادة القتل ترجع إلى التعاليم التى أقرها حكماؤهم استناداً إلى ما جاء فى الكتب المقدسة عندهم : « إن من حكمة الدين وتوصياته قتل الأجانب » . **واليهود عندهم** عيدان مقدسان لا تتم فيهما الفرحة إلا بتقديم القرابين البشرية أى بتناول الفطير الممزوج بالدماء البشرية .. وأول هذين العيدين :

عيد البوريم : الذى يحتفلون فيه بذكرى **نجاح اليهودية الجميلة** استير التى أقنعت ملك الفرس بالسماح لليهود بأن يقتلوا الوزير هامان ، ويذبحوا عشرات الألوف من بنى قومه بما فيهم الأطفال والشيوخ والنساء ، وذلك لأن هامان اتُّهم بأنه ينوى ذبح اليهود .... وموعد هذا العيد فى مارس من كل عام .

والعيد الثانى هو عيد الفصح اليهودى : وهذا موعده فى أبريل وفيهما لا تحصل البركة إلا بتناول الفطائر الممزوجة بالدماء البشرية .

وذبائح عيد البوريم تنتقى عادة من بين الشباب البالغين ، يؤخذ دم الضحية ويجفَّف على شكل ذرات تمزج بعجين الفطائر ويحفظ ما تبقى للعيد المقبل .. أما ذبائح عيد الفصح اليهودى فتكون عادة من الأولاد الذين لا تزيد أعمارهم كثيراً عن عشر سنوات ، ويتم استنزاف دم الضحية إما بطريق (البرميل الإبرى) وهو برميل يتسع لجسم الضحية ثُبتت على جميع جوانبه إبر حادة تغرس فى جثة الضحية بعد ذبحها ووضعها فى البرميل لتسيل منها الدماء التى يفرح اليهود بجمعها فى وعاء يُعدُّ لجمعها ... أو بذبح الضحية كما تذبح الشاة وتصفية دمها فى وعاء أو بقطع شرايين الضحية فى مواضع متعددة ليتدفق منها الدم ...

وفى مناسبات الزواج يصوم الزوجان من المساء عن كل شىء حتى يُقدِّم لهما الحاخام بيضة مسلوقة ومغموسة فى رماد مشرب بدم إنسان ... وفى مناسبات الختان يغمس الحاخام إصبعه فى كأس مملوءة بالخمر الممزوج بالدم ثم يدخله فى فم الطفل مرتين وهو يقول للطفل : إن حياتك بدمك ..

والتلمود يقول لليهود :

« اقتلْ الصالح من غير الإسرائيليين » .

« يحل بقر بطن الأمي كما تُبقَر بطون الأسماك حتى في يوم الصوم الكبير الواقع في أيام السبوت » .

« مَنْ يَقتل أجنبياً يُكافأ بالخلود في الفردوس والإقامة في القصر الرابع ... » .

الخطأ بين صفوف اليهود [١]

تتوجه التوراة بالوصايا العشر إلى أتباعها فتقول :

« أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يُعطيك الرب إلهك . لا تقتل. لا تزن .. لا تسرق .. لا تشهد على قريبك شهادة زور . لا تشته بيت قريبك ، لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك » .
(سفر الخروج ٢٠ : ١٢ - ١٧)

« أما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك .. لا تصنع عملاً ما أنت وابنك وعبدك وأمتك .. إلخ »
(سفر الخروج ٢٠ : ١٠)

وهذه فيها جوانب من الخير .. والخير هنا محدود بحدود الرابطة الدموية والقرابة ، ولا تدخل إلى إطار الإنسانية ، فهي تدور في نفس الحلقة التي حددنا آنفاً .. وهي حلقة الاصطفاء وحب الذات .

وتحدد التوراة عقوبة مَنْ ضرب أو سَبَّ أبويه وهي عقوبة لا أظنها نُفِّذت على مرِّ الأزمان : « مَنْ ضرب أباه أو أمه يُقْتَلُ قتلاً ... ومَنْ شتم أباه أو أمه يُقْتَلُ قتلاً ... » .
(سفر الخروج : ٢١)

ونستطيع أن نتلمس بعض القيم الرفيعة بين عبارات التوراة الموجودة في أيدي اليهود اليوم ، مثال ذلك :

* « لا تقبل خبراً كاذباً ، ولا تضع يدك مع المنافق لتكون شاهد ظلم ، لا تتبع الكثيرين إلى فعل الشر ، ولا تجب في دعوى مائلاً وراء الكثيرين للتحريف ، ولا تحاب مع المسكين في دعواه ، إذا صادفت ثور عدوك أو حماره شارداً ترده إليه .. » .
(سفر الخروج : ٢٣)

---

(١) راجع : اليهود تاريخاً وعقيدة ، د. كامل سعفان ، ص ١٨٦ وما بعدها .

* « لا تشتم الأصم وقدام الأعمى لا تجعل معثرة ... » .

(اللاويين : ١٩)

* « لا تأخذ رشوة لأنَّ الرشوة تُعْمى المبصرين وتعوج كلام الأبرار » .

(سفر الخروج : ١٢)

وهذا كلام أقرب إلى الصواب ، ولكنه يندثر دائماً ويتوارى بجانب الحديث عن العنصرية .

ولقد حذَّر موسى الناس من الاختلاط مع الخطاة حتى لا يهلكوا معهم : « فقال موسى لشيوخ إسرائيل : اعتزلوا عن خيام هؤلاء القوم البغاة ولا تمسوا شيئاً مما لهم لئلا تهلكوا بجميع خطاياهم .. » [(١)] .

ولعلك – أخي القارئ – تلاحظ أنَّ التوراة لا تسير في خط متناسق مع الجوانب الإنسانية .. ففي بعض المراحل نجدها تتحدث عن بني إسرائيل وتجعل منهم مدار التركيز ومنتهى الغايات .. وفي بعض الأحيان نراها تتحدث عن قيم رفيعة لا ندري هل هي إنسانية عامة أم هي خاصة ببني إسرائيل دون غيرهم ؟

ومما يلفت انتباهنا ما توليه عبارات الكتاب المقدس عند اليهود من عناية بحماية الأعراض ، ومثال ذلك :

* « لا تُدنس ابنتك بتعريضها للزنى لئلا تزني الأرض وتمتلئ الأرض رذيلة » .

(لاويين : ١٩)

* « إذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل فوجدها رجل في المدينة واضطجع معها فأخرجوهما كليهما إلى باب تلك المدينة وارجموهما بالحجارة حتى يموتا .. الفتاة من أجل أنها لم تصرخ في المدينة ، والرجل من أجل أنه أذل امرأة صاحبه .. ولكن إذا وجد الفتاة المخطوبة في الحقل وأمسكها الرجل واضطجع معها يموت الرجل الذي اضطجع معها وحده ، لأنه لم يكن مَنْ يخلصها » .

(سفر التثنية : ٢٢)

(١) المصدر السابق .

مراسيم تكفير الخطايا (١)

لا يخلو الأمر من خطأ يقع فيه الإنسان ويحس أنه أخطأ ويحتاج إلى ما يريح ضميره ، ويمنحه الطمأنينة إلى أنه نجا من العاقبة الوخيمة ، والتوراة لا تقدّم كلاماً واضحاً عن الجزاء الأخروى ، وتكاد - كما رأينا - تدور حول الحياة الدنيا ، فكل ما يفعله الإله لبنى إسرائيل أنه يعطيهم الأرض ويطرد من أمامهم الشعوب ، ويجعلهم الشعب المختار .

بل وتعطيهم التوراة - كما مرّ بنا - الحقّ فى ارتكاب الكثير من الخطايا ، ولقد رأينا أنّ القليل من التشريعات السامية التى تمثل البقية الباقية من الوحى فى التوراة لا تؤثر فى قليل أو كثير من النمط السلوكى لدى اليهود .. فهى لم تنجح فى تخليصهم من عقدة الأنانية الناتجة عن فكرة الاصطفاء .

ولو ألقينا نظرة على مراسم الخلاص فى اليهودية لاستطعنا أن نتبين نقطة هامة وهى أنها مراسم لا تساعد على التخلص من الذنب أو السير فى طريق الشفاء منه ، بل هى مراسم تعين المذنب على الاستمرار فى جريمته ، إذ تخلصه فقط من مجرد الضيق الذى قد ينتابه لارتكاب جريمته .

وشرط نجاح خطوات التكفير عن الخطيئة فى اليهودية أن يقوم بمراسم التكفير شخص من نسل هارون ، وقد حدث أن جماعة ثارت على هذا الامتياز الخاص بأبناء هارون ، وكان الثائرون بقيادة رجل اسمه « قورح بن يصهار بن قهات بن لاوى .. » وكان معه مائتان وخمسون رجلاً .. والنتيجة ضربة قاصمة « انشقت الأرض التى تحتهم وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم وبيوتهم ... وخرجت نار من عند الرب وأكلت المائتين والخمسين رجلاً الذين قربوا البخور ... » .

وتقدّم التوراة تبريراً لهذا الجزاء فتقول : « لكيلا يقترب رجل أجنبى ليس من نسل هارون ليبخر بخوراً أمام الرب » .

وكان لابد أن يخضع اليهود لذلك ويلتزموا بأن يؤدوا جزءاً من كافة أملاكهم وأموالهم : « أقمنا على أنفسنا فرائض أن نجعل على أنفسنا ثلث شاقل (عملة كانوا يتداولونها) كل سنة لخدمة بيت إلهنا .. وأن نأتى بأوائل عجيننا ورفائعنا وأثمار كل

---

(١) انظر : التوراة - العقل ، العلم ، التاريخ ، د. بدران محمد بدران ، ص ١٦٢ وما بعدها .

شجرة من الخمر والزيت إلى الكهنة ، إلى مخادع بيت إلهنا ، وبعشر أرضنا إلى اللاويين ، واللاويون هم الذين يعشرون فى جميع مدن فلاحتنا ... » (نحميا : ١٠)

خطوات التكفير

إذا أخطأ أحد من بنى إسرائيل وعمل الشر فى عين الرب - كما يقولون - فعليه أن يُقدّم ذبيحة تُسمّى ذبيحة خطية ، وإذا كان المخطىء كاهناً فعليه أن يُقدّم ثوراً ابن بقر .. فبعد أن يذبح الثور أمام خيمة الاجتماع أمام الرب يأخذ الكاهن الممسوح بالزيت المقدس من دم الثور ويدخل إلى خيمة الاجتماع ويغمس الكاهن بإصبعه فى الدم وينضح من الدم سبع مرات أمام الرب لدى الحجاب المقدس ويجعل من الدم على قرون مذبح البخور الذى فى خيمة الاجتماع أمام الرب وسائر دم الثور يَصُبّه أسفل مذبح المحرقة ... إلخ . (لاويين : ١٤ : ١٢)

وإليك بعضاً من أنواع الخطايا والذنوب وطريقة تكفيرها :

* من أخطأ خطأ يقدم هذا المخطىء ذبيحة حسب مكانته - فالكاهن يقدم « ثوراً ابن بقر صحيحاً » (اللاويين : ٤/ ٤)

* والخطأ العام يقدم له أيضاً « ثوراً ابن بقر .. » (اللاويين . ٤ / ١٥) وخطأ الرئيس يقدم له قرباناً « تيساً من المعز ذكراً صحيحاً » (لاوين : ٤ / ٢٢)

* « وخطأ الفرد العادى العامى يقدم كنزاً من المعز أنثى صحيحة ... » . (لاويين : ٤/ ٢٨)

* « مَنْ مسّ شيئاً نجساً (جثة وبهيمة ...) فهو نجس ومذنب » (لاويين : ٥ : ١ - ٢)

* « ومَنْ مسّ نجاسة إنسان فهو مذنب » (لاوين : ٥ / ٣) . والحلف ذنب .

وكفارة هذه الذنوب : أنثى من الأغنام « نعجة أو عنزاً من المعز ، ذبيحة خطيئة ، وإن لم يمكنه ذلك فذبيحة يمامتان أو فرخا حمام .. وإن لم يمكنه ذلك فيأتى بعشر الإيفة [1] من دقيق ، قربان خطيئة .

* وكفارة الخيانة أو الخطأ السهو فى أقداس الرب كبش صحيح من الغنم .

---

(١) الإيفة : تعادل كيلة سلطانية وسدسها .

* وخطيئة الاختلاس والاغتصاب بأن يجحد الأمانة كفارتها رد المسلوب الذى سلبه مع تغريمه بمقداره : برأسه ويزيد عليه خمسه ثم يأتى للرب بذبيحة لإثمه كبشاً صحيحاً وذبيحة الإثم كذبيحة الخطيئة لهما . (لاويين : ٦)

الكاهن الذى يكفر بها تكون له والكاهن الذى يعرف محرقة إنسان فجلد المحرقة التى يقربها يكون له وكل تقدمة خبزت فى التنور وكل ما عمل .... يكون للكاهن الذى يقربه وكل تقدمة ملتوتة بزيت أو ناشفة تكون لجميع بنى هارون كل إنسان كأخيه . (لاويين : الاصحاح الأول - إلى الأصحاح السابع)

* وإذا حبلت المرأة وولدت ذكراً تكون نجسة سبعة أيام كما فى أيام طمث علتها تكون نجسة .. وتظل ثلاثة وثلاثين يوماً .

وإن ولدت أنثى تكون نجسة أسبوعين ؛ وتظل ستة وستين يوماً ومتى كملت أيام تطهيرها .. تأتى بخروف حولى محرقة ، وفرخ حمامة أو يمامة ذبيحة خطية ، وإن لم تقدر على شاة تأخذ يمامتين أو فرخى حمام الواحد محرقة والآخر ذبيحة خطية فيكفر عنها الكاهن فتطهر (لاويين الأصحاح : ١٢)

* وإذا أصيب الإنسان بالبرص يعرض على الكاهن ، فإذا كان مكان البرص من الجلد « ناتئ أو قوباء أو لمعة .. » ورأى الكاهن - من بنى هارون - الضربة أعمق من جلد جسد ، أو أبيض الشعر حكم الكاهن بنجاسته ، أما إذا لم تمتد الضربة فى الجلد يحكم الكاهن بطهارته .

وقارئ الأصحاح الثالث عشر من سفر اللاويين يجد نفسه أمام تصنيف للأمراض الجلدية حيث يعرض المصاب بها ؛ ولو بأثر من آثار الكيّ فينظر الكاهن فى أمره ويحجزه إن اقتضى الأمر سبعة أيام ثم سبعة أيام أخرى فإن رأى المكان قد ابيضّ والمنظر أعمق من الجلد .. يحكم الكاهن بنجاسته .

ولا يتوقف الأمر عند جلد الكائن الحى - والإنسان خاصة - بل يمتد إلى الثوب (صوف أو كتان أو جلد وكل مصنوع من جلد) وقد يرى الكاهن أن يحرق مكان برص الثياب .

* وفى (اللاويين : ١٤) : شريعة تطهير الأبرص، إذا رأى الكاهن أنه قد برئ فيقدم الذبائح والقرابين . يأخذ خروفين صحيحين ونعجة واحدة حولية صحيحة وثلاثة أعشار دقيق تقدمة ملتوتاً .

وإن كان فقيراً : يأخذ خروفاً واحدا .. وعشراً واحداً من دقيق .

* وفى (اللاويين : ١٥) : حديث عن الرجل الذى يكون له سيل من لحمه فسيله نجس .. ومن مسّ فراشه يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجساً إلى المساء .

* إذا زنى رجل مع امرأة قريبه فإنه يقتل الزانى والزانية .

يقتل الزانى والزانية إذا زنى بامرأة قريبه أو امرأة أبيه ، وكذا الشواذ (رجل مع رجل) ، يحرق من تزوج بامرأة وأمها ، وكذلك هما محُرقان ويقتل من أتى بهيمة .

(اللاويين : ٢٤)

كل من سبّ إلهه يحمل خطيئته ، ومن جدف على اسم الرب فإنه يُقتل يرجمه كل الجماعة رجماً .

وعن شريعة القصاص جاء فى (اللاويين : ٢٤) :

وإذا أمات أحد إنسانا فإنه يُقتل ومن أمات بهيمة يعوض عنها – نفساً بنفس .

وإذا أحدث إنسان فى قريب عيباً فكما فعل ، كذلك يفعل به كسر بكسر وعين بعين وسن بسن . كما أحدث عيباً فى الإنسان كذلك يحدث فيه .

الغريب يكون كالوطنى .

ولكى يرتقى المنبوذ أو المعزول إلى درجة الامتزاج ببنى جلدته وقومه ينبغى له من الطهارة ومن طقوس الذبائح بأنواعها [١] . ذبيحة الشكر وذبيحة الفداء وذبيحة الإثم وذبيحة الكفارة طقوساً للتطهير فيوصى موسى بنى إسرائيل بقوله :

« فيأخذون للنجس من غبار حريق ذبيحة الخطية ، ويجعل عليه ماء حيا فى إناء ، ويأخذ رجل طاهر زوفاً ويغمسها فى الماء وينضحه على الخيمة وعلى جميع الأمتعة وعلى الأنفس الذين كانوا هنا ، وعلى الذى مس العظم أو القتيل أو الميت أو القبر ينضح الطاهر على النجس فى اليوم الثالث واليوم السابع ويطهره فى اليوم السابع فيغسل ثيابه ويرحض بماء فيكون طاهراً فى الماء ، وأما الإنسان الذى يتنجس ولايتطهر فتباد تلك النفس من بين الجماعة لأنه نجس مقدس الرب ، ماء النجاسة لم يرش عليه إنه نجس

(١) إسرائيل والتلمود – دراسة تحليلية ، إبراهيم خليل أحمد ، ص ٩٩ .

فتكون لكم فريضة دهرية ، والذى رش ماء النجاسة يغسل وكل ما مسه النجس يتنجس والنفس التى تمس تكون نجسة إلى المساء » (عدد ٥ : ١-٤)

هذه الطقوس لم تقرب بنى إسرائيل إلى الله بل باعدت بينهم وبين الله، فيقول أشعياء: « اسمعى أيتها السموات وأصغى أيتها الأرض لأن الرب يتكلم ، ربيّت بنين ونشأتهم أما هم فعصوا على ، الثور يعرف قانيه والحمار معلف صاحبه ، أما إسرائيل فلا يعرف ، شعبى لا يفهم ، ويل للأمة الخاطئة الشعب الثقيل الإثم نسل فاعلى الشر أولاد مفسدين تركوا الرب استهانوا بقدوس إسرائيل ارتدوا إلى وراء » (أشعيا : ٢ : ٤)

ثم يندد بأعمالهم ويكشفها لهم وللأجيال بقوله « لا تعودوا . تأتون بتقدمة باطلة البخور هو مكرهة لى رأس الشهر والسبت ونداء المحفل لست أطيق الإثم والاعتكاف رءوس شهوركم وأعيادكم بغضتها نفسى صارت على ثقلا مللت حملها فحين تبسطون أيديكم أستر عينى عنكم وإن كثرتم الصلاة لا أسمع أيديكم ملآنة دماً .. اغتسلوا تنقوا ، اعزلوا شر أفعالكم من أمام عينى ، كفوا عن فعل الشر تعلموا فعل الخير ، اطلبوا الحق ، انصفوا المظلوم ، اقضوا لليتيم ، حاموا عن الأرملة إن شئتم وسمعتم تأكلون خير الأرض وإن أبيتم وتمردتم تؤكلون بالسيف لأن فم الرب تكلم » (أشعيا : ١ : ١٣-٢٠)

ويوضح العهد الجديد أن هذه الذبائح لا تستطيع ألبتة أن تنزع الخطية [1] ، إذ يقول كاتب الرسالة إلى العبرانيين : « وكل كاهن يقوم كل يوم يخدم ويقدم مراراً كثيرة تلك الذبائح عينها لا تستطيع ألبتة أن تنزع الخطية » (عبرانيين : ١٠ : ١١-١٢)

يوم التكفير والغفران [2]

وتُطلَب المغفرة فيه عن الذنوب التى فعلها اليهود فى صلاة جماعية يؤديها الكهنة، ويُمكن القيام بالصلاة فى أى وقت من السنة ، لكن يوم التكفير يتميز بتمسك اليهود فيه إذ يمضون اليوم كله فى الصلاة والصيام ويسبقه تسعة أيام من التوبة عما فعلوا طول العام من آثام ، وهذا اليوم يكون فى الشهر السابع من السنة اليهودية .

وهكذا نرى أنّ الخلاص من الذنب يكون بتقديم المحرقات والهدايا للكهنة ثم بالصلاة

---

(١) السابق ص ٩٧ .

(٢) انظر : اليهود تاريخاً وعقيدة ، ص ٢٢٣ .

الموسمية التى تُقام فى أوقات معينة من السنة .. وكل هذه أمور لا تضمن للمذنب خلاصاً حقيقياً من الذنب ، بل إنها كما أشرنا تُريح أعصابه إذا توترت لارتكابه ذنباً .. وتعطيه صك الأمان إلى أنه فى أى وقت يستطيع أن يتحول إلى إنسان طاهر الذيل عفيف النفس مهما فعل من آثام ، وذلك بفضل ما تعطيه له ديانته من آمال عراض فى الصفاء، عن طريق الاصطفاء .

خاتمة

نلاحظ بعد ما عرضناه أنّ اليهودية فى تقديمها للخطيئة والخلاص منها قاصرةٌ فى عدة جوانب منها :

* أنها لم تراعِ الجوانب الإنسانية المختلفة ولم تتعامل مع الإنسان بمنطق البشرية بل بمنطق العنصرية .
* لا توجد فى عُرف الديانة اليهودية خطيئة بمعنى هذه الكلمة .. وإنما تُوجد اعتبارات .. إذا توفّرت تحوّل الفعل إلى خطأ .. وإلا فهو صواب .
* إنّ طريق الخلاص بعيد بُعداً تاماً عن خط العلاج الصحيح ، بل إننا رأيناه مناسباً لتعميق الخطيئة والاستراحة إليها فهو لا يضمن ردّ الحقوق إلى أصحابها وترك الخطأ .. إلى الصواب .
* إن الخطيئة - فى عرف اليهود - أمر لم يتنزه عنه أحد حتى الأنبياء بل والذات الإلهية ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وقت الخلاص اليهودى

لم تتضمن أسفار التوراة أى حديث صريح عن يوم القيامة والبعث والحساب سوى إشارات عن محاسبة المقصرين وإدانة الناس ، جاءت هذه الإشارات فى ثنايا بعض التراتيم أو مناجاة بعض القديسين فهى إشارات عابرة ولم تجرد التوراة آيات قاطعات عن هذا الأمر الخطير .. وخلتْ تبعاً لذلك من الحديث عن الجنة والنار ، ذلك أن اليهود عاشوا فترة السبى بعيدين عن أى تراث لهم سوى ما وعته ذاكرتهم من ذكريات وأقاصيص تداولها

القوم فيما بينهم وضخمت مـا تركوه من تراث شأن أى مغترب عن بيته ووطنه ، يبكى ما كان ، ويحنّ إلى الأيام الخالية .

وعاشت فى أذهان اليهود - أيام السبى - ذكـريات الهيكل ومـا كانوا ينعمون به - أو ينعم به أجدادهم - فى ظل حكم سليمان عليه السلام .

وبعد هذه الفترة كُتبت التوراة - أو أعيد كتابتها - فإذا بها تخلو من الحديث عن عالم الآخرة ، وإذا بها تُصور الرب ملكاً خاصاً لليهود ، وتضعه موضع الخادم لهم ، الحريص على منفعتهم ، النادم على الإساءة لهم .

ويكفى أن تعرف أن ما يُسمّيه الناس (قوس قزح) وهو ما يظهر عقب المطر فى الأفق كخطين (أحمر وأخضر) ، هذه الظاهرة الطبيعية ليست بسبب انعكاسات ألوان الطيف ، بل هى علامة وضعها الرب ليتذكر بها إذا حَمِىَ غضبه حتى لا يؤذى بنى إسرائيل .

ويعقوب - عليه السلام - فى نصوص التوراة المكتوبة عقب فترة السبى ينال البركة بعد مصارعة عنيفة بينه وبين الله .. إذ لم يتركه يعقوب طوال الليل وظل متعلقاً به حتى قاربت خيوط الفجر أن تبزغ .. وأصرّ يعقوب على أن ينال البركة .. وفعلاً نال البركة وتغيّر اسمه من يعقوب إلى إسرائيل .. لأنه صارَع مع الله حتى الصباح .

* ولم تجد التـوراة حـرجاً فى أن تذكر طريقة اختلاس يعقوب البركة من أخيـه عيسو .(1)

تلك هى الشخصية التى تُربيها التوراة فكيف يسوغ معها الحديث عن اليوم الآخر والثواب والعقاب فيه . وفيهم مَنْ يقترف الإثم والفاحشة ولا يبالى مع مَنْ يرتكبها .. وسـواءً مع أخته أو أمه أو ابنته .. وفيهم مَن يقدّس الزوانى وفيهم من يحترف السرقة والكذب والخداع ؟

إن هذه التوراة هى الرد اللاشعورى على الاضطهاد والسبى وهتك الأعراض وقتل الرجال ، ومن هذا المنطلق يأتى الخلاص اليهودى .. إنه خلاص فى الدُّنيا .. إنه مملكة تُقام على الأرض . ألم يُهدَم هيكلهم ؟ ألم تُقوَّض مملكتهم التى لم تدُم سوى بضع سنين ؟ فليكن الخلاص متمثلاً فى مملكة على الأرض ، وإذا كانوا قد ذاقوا مرارة السبى

(1) سبق الحديث عن هذا ، فليراجع فى موضعه .

وقسوة القتل فلتأت النبوءات بالخلاص .. الخلاص من الكل ، حيث يدوسون كلّ شعوب الأرض . واقرأ هذا النص فى الأصحاح ١١ من سفر أشعيا :

« ويكون فى ذلك اليوم أن يجمع الرب جميع المشتتين والمنفيين من أبناء إسرائيل ويهوذا من أربعة أطراف الأرض .. لينقض الجميع على أكتاف الفلسطينيين غرباً وينهبون بنى المشرق معاً .. يكون على أدوم ومؤاب امتداد أيديهم وبنو عمون فى طاعتهم ، ويبيد الرب لسان بحر مصر ويهز يده على النهر بقوة ريحه ويضربه إلى سبع سواق يعبر فيها بنو إسرائيل بالأحذية ، وتكون سكة لبقية شعبه كما كان لإسرائيل يوم الخروج من أرض مصر » .

وهكذا يكون الخلاص بالثأر من التاريخ .. الثأر من المصريين لما فعله أجدادهم ومن غير المصريين حيث يصير الجميع خدماً وعبيداً .

وإذا كان المصريون قد سبق أن استعبدوا بنى إسرائيل وساموهم سوء العذاب ، فإنه لابد أن يأتى اليوم الذى تنهار فيه الحياة فى مصر حتى لا ترفع عصاها فى وجه اليهود ، وقد تكفّل الرّبُّ بهذه المهمة .

واقرأ هذه الفقرة حيث يقول الرب : « أهيج مصريين على مصريين ، فيحارب كل واحد أخاه ، وكل واحد صاحبه ، مدينة مدينة ، ومملكة مملكة ، وتراق روح مصر داخلها وتضيع مشورتها ، فيسأل كل واحد العرافين والتوابع والجن ، وأغلق على المصريين فى يد حاكم قاسٍ فيتسلط عليهم .

وتجف الحياة من البحر ويجف النهر وتُنتن الأنهار وتضعف السواقى ويتلف الزرع وتجف الرياض والحقول على ضفاف النيل ، والصيادون لا يجدون صيداً .. وكل من يلقى بشص إلى النيل ينوح ، ويكتئب كل عامل بالأجرة .

لقد ألقى الرب عليها روحاً شريرة أو وقعت مصر فى ضلال وأضلّت أبناءها فإذا بهم يترنحون كالسكران فى قيئه فلا يكون لمصر عمل يعمله رأس أو ذنب ، وتكون أرض إسرائيل ويهوذا رعباً لمصر ، كل مَنْ ذكرها يرتعب ... » .

وهكذا – أيّها القارئ – ترى كيف أن مصر فى التفكير اليهودى لها وضع خاص.. يجب أن تنهار ، ويجب أن تسود فيها الفتنة .. ويجب أن يعملوا على تخريبها حتى ينوح كل مَنْ فيها .. ولا سبيل لخلاصها إلا أن تكون تابعاً لبنى إسرائيل ، واسمع إلى هذا

الكلام : « ويصرخ المصريون .. ويقيمون فى وسطهم عموداً ومذبحاً للرب فيرسل الرب لهم محامياً ومخلصاً يُخلصهم ويرجعون للرب فيستجيب لهم ويشفيهم » .

وهكذا لا يكون لمصر خلاص إلا بتبعيتها لبنى إسرائيل .

واقرأ هذا النص لترى كيف يكون خلاص بنى إسرائيل .. حيث سيعودون رأس الزاوية وأساس البركة ..

« فى ذلك اليوم تكون سكة مصر إلى أشور ، فيجيء الآشوريون إلى مصر ويذهب المصريون إلى آشور وتكون إسرائيل هى الثالثة ، وهى البركة فى وسط الكل » .

واقرأ فى سفر أشعيا : ٣٤ : « للرب تكون ذبيحة فى البصرة وذبحاً عظيماً فى أرض أدوم ، وترتوى الأرض بالدم وتتحول أنهارها زفتاً وترابها كبريتاً ، وتصير أرضها زفتاً مشتعلاً ليلاً ونهاراً ، لا تنطفيء إلى الأبد يصعد دخانها » .

« ويرثها القنفذ والقوق والكركى والغراب ويمتد عليها خيط الخراب ومطمار الخلاء خراب إلى يوم الدينونة » .

وهكذا تُخرب العراق كما تُخرب مصر ... أما بنو إسرائيل : « استيقظى استيقظى البسى عزك يا صهيون البسى ثياب جمالك يا أورشليم لأنه لا يعود يدخلك فى ما بعد أغلف ولا نجس » (أشعيا : ٥٢)

والأغلف والنجس – فى زعم اليهود – هما النصرانى والمسلم .

ويوجز (أشعيا : ٤٩) قضية الخلاص فى مفهوم اليهود « هكذا قال السيد الرب هائذ أرفع إلى الأمم يدى وإلى الشعوب أقيم رايتى فيأتون بأولادك فى الأحضان وبناتك على الأكتاف يحملن ويكون الملوك حاضنيك وسيداتهم مرضعاتك ... بالوجوه إلى الأرض يسجدون لك . ويلحسون غبار رجليك . فتعلمين أنى أنا الرب الذى لا يخيب منَ انتظره » .

ولعلك الآن – أخى القارئ – قد عرفتَ سر إسقاط التفكير فى اليوم الآخر من ذاكرة كُتَّاب التوراة .. إنهم رأوا خلاصهم على هذه الأرض .. حيث يعودون شعباً مدللاً .. فيه البركة ... يسجد له الجميع .. فلماذا القيامة ؟ .. ولمَ الحساب والثواب والعقاب ؟

فإذا ما رجعت إلى القرآن الكريم – كتاب الله الخالد ومعجزته الباقية – وجدت الآيات تعبر عن كراهية اليهود للموت إذ تحداهم المولى سبحانه وتعالى فقال :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرةُ عِندَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الموتَ إِنْ كُنتُم صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ واللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمينَ ﴾ (البقرة : ٩٤)

ولم تهزهم الذنوب التي اقترفوها في حق الله تعالى بجحود نعمه وعبادة غيره ، إذ زعموا أن هارون [١] أقام لهم عجلاً وعبدوه في غيبة موسى ثم في حق أنبيائه حيث كذبوا وقتلوا منهم من قتلوا .. وبعد ذلك زعموا أنهم لهم الجنة فقال تعالى : ﴿ وقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الجنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصارَى تِلْكَ أَمانِيُّهُم ﴾ (البقرة : ١١١) ، وزعموا أنه لو سلموا - جدلاً - بأنهم سيدخلون النار فإنهم سيدخلونها أياما معدودات ، قال تعالى : ﴿ وقَالُوا لَنْ تَمسَّنا النَّارُ إِلاَّ أيَّاماً مَّعْدُودةً ﴾ (البقرة : ٨٠)

وهكذا ترى الفكرة عن الآخرة مشوشة عندهم وأنهم لا يشغلهم إلا أنهم الشعب المختار ، وما علموا أن ذلك الاختيار والتمييز إنما كان على عالمي زمانهم . أو كان تمييزاً في وجه من الوجوه ؛ وهذا لا يستلزم المطلق ، نسأل الله تعالى أن يهدينا إلى سواء السبيل .



(١) يصحح القرآن المفهوم : أن الذى صنع العجل هو السامرى ، وأن هارون عليه السلام حاول ردهم عن ذلك .

الفصل الثاني

الخطيئة والخلاص في عُرف المسيحية


تمهيد

حينما نبحث قضية الخطيئة والخلاص في الديانة المسيحية نجدها في قمة التعقيد والتشابك ، فللمسيحية فلسفة خاصة ، وتصور معين لهذه القضية يختلف عن جميع التصورات التي نزلت بها الشرائع السماوية ... من لَدُنْ آدم عليه السلام ... فقد أصبحت المسيحية نظاماً فريداً يَعِزُّ على الأفهام تصوره ، ويصطدم فيه العقل بكثير من العقبات .

وإننا في هذه الدراسة عن الخطيئة - في النصرانية - لسنا أمام خطأ يرتكبه الأفراد ويحاولون إصلاحه بمساعدة إلهية .. بل أمام لغز بشرى اسمه الخطيئة الأبدية ، تلك الخطيئة التي التصقت بالناس جميعاً عندما ارتكب آدم المعصية وأكل من الشجرة . وهذه المعصية لا يكفرها إلا دم إلهي حتى لا يموت آدم وأولاده موتاً أبدياً .

وهذه المعصية لم تلتصق بآدم عليه السلام وحده ، بل توارثها أبناؤه جيلاً بعد جيل ، ولم يكن أمام الخالق سبحانه وتعالى - إزاء هذا التعقيد - إلا أن يحل المسألة حلاً جذرياً لا تجد الخطيئة معه إلا أن تستحى وتترك البشرية . فماذا عليه أن يفعل ؟

زعموا أن الله - تعالى - أرسل ابنه إلى الأرض ووكَّل إليه المهمة .. فما عليه إلا أن يستسلم لليهود كي يصلبوه ويقتلوه شر قِتْلة ، وبهذا وحده تتطهر البشرية وتنجو من الخطيئة التي ارتكبها آدم وجرَّتهم إلى الجحيم .

فالمسألة كما ترى ليست الخطيئة والخلاص ، وإنما هي - مع ذلك - مسألة التبني والصليب ، ولا يملك الدارس لقضية الخطيئة والخلاص إلا أن يتعرض بالبحث والدراسة في قضية الفداء على النمط المسيحي .

ذلك لأن هذه القضية قد أدت بهم إلى القول بالثالوث (الأقانيم الثلاثة عندهم هي

الأب ، الابن ، الروح القدس ، ويزعمون أن الثلاثة إله واحد ...) كما دفعتهم إلى الإيمان بالصليب .. بل وجعلتهم يؤمنون باستمرارية الوحى إلى يومنا هذا إذ لم ينقطع الوحى عندهم ؛ لأن الكهّان واللاهوتيين إذا امتلأوا بالروح القدس كان نطقهم وحياً من الله ، وكان كلامهم كلاماً من الله جرى على لسانهم [(١)] .

ولهذا رأيت أن أتناول فى هذا التمهيد - بإيجاز - قضية الإيمان والعقل، لأوضح موقف المسيحية من الإيمان العقلى ثم أعرض لقضية الوحدانية عرضاً سريعاً أستشهد فيه بما ورد فى الأناجيل عن الله الواحد الذى لا شريك له .. ثم أوضح بعض الغموض فى موقف المسيحية من الوحى ، وذلك تمكيناً للحق .. وعوناً لأهله « ليهلكَ مَنْ هلكَ عن بينة ، ويحيا مَنْ حيَّ عن بينة » .. وتقديماً للعذر بين يدى الله تعالى .. وقياماً بحق التبليغ والنصيحة .

وقد يتساءل البعض عن السر فى فصل الحديث عن الخطيئة عند اليهود عن الحديث عنها لدى النصارى .. وكان يمكن تناولهما فى إطار واحد تحت عنوان الخطيئة فى الكتاب المقدس مثلاً إذ إن المسيحيين يعتبرون التوراة جزءاً متمماً للإنجيل ..

والجواب أن اليهود يؤمنون بالتوراة دون الإنجيل وعندهم التلمود متمم لشريعتهم واليهود ملتزمون بتقديم القرابين حسب الثابت لديهم .. أما المسيحيون فلا يعترفون بالتلمود .. ثمَّ إنَّهم وإن كانوا يعترفون بالتوراة إلاَّ أنهم لا يلتزمون بكثير مما جاء فيها .

* فالختان غير ضرورى عند النصارى .. وهو فى التوراة .

* ولا يلتزمون بالسبت .

* كما أنهم لا يقدمون الذبائح والقرابين حسب ما هو موجود فى التوراة أو العهد القديم كما يحلو لهم أن يسمُّوه .

ولهذا وجدنا اختلافاً جذرياً بين الفريقين يصل إلى حد التنافر - فآثرنا أن يكون لكل فريق جانب خاص به فى هذا البحث .

---

(١) أصدر الفاتيكان وثيقة تعلن عن تبرئة اليهود من دم المسيح . وهم الذين صلبوه فى زعمهم وهذا يدلنا على أن الرهبان من حقهم أن يغيروا من ثوابت العقيدة عندهم .

الإيمان والعقل

خلق الله الإنسان وميّزه عن سائر الكائنات التى ارتبطت بعالمه الذى يعيش فيه ، وسخّر له ما فى الكون .. ولعلنا نتفق حول ما يتميز به الإنسان ألا وهو العقل ، ذلك أن الإنسان لا يتميز عن غيره بالوجدان أو الغريزة أو القوة الجسمية ، فكلها أمور يشاركه فيها الحيوان .. أما العقل فهو خاصية تميز بها الإنسان ليكون أهلاً للتكليف والمساءلة .

هذه مقدمة لابد منها قبل أن نوضح علاقة الإيمان بالعقل ... وليس من المقبول أن تكون الشرائع المرسلة من الله تعالى للبشر مخالفة لمقتضى فطرة العقل البشرى ، لأن دراستنا لتاريخ الرسل والرسالات تدلنا على مدى الاتساق البالغ بين ما جاء به الرسل ومقتضيات العقل الإنسانى .

أبو الأنبياء .. والعقل

وسلوك أبى الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام مثال واضح يدل على ضرورة المنهج العقلى فى الإيمان والرسالة التى حملها إلى قومه قائمة أصولها على الإقناع ونستطيع أن نتبين ذلك فى موقفين :

أولهما : حينما حاول أن يرتفع بأنظار قومه ويسمو بأفكارهم حتى لا ترتبط بأصنام يصنعونها بأيديهم ثم يخرون لها سجّداً .. ارتفع بهم إلى ما هو أكبر من الأحجار وأشد خلْقاً ، فلما رأى كوكباً قال : ﴿ هَذَا رَبِّى ﴾ .. فلما أفل قال : ﴿ لا أحبُّ الآفلين ﴾ .

إذن الرب لا يغيب .. واستمر إبراهيم عليه السلام فى توجيه انتباه قومه إلى الكون وما فيه ، فلما رأى القمر بازغاً قال : ﴿ هَذَا رَبِّى ﴾ . ويعلل لذلك قائلاً : ﴿ هَذَا أكبرُ ﴾ كما وضّح القرآن .. وغاب القمر .. ولم يرْضَ إبراهيم عن إله يغيب عن خلْقه فقال : ﴿ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لأكُونَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ (الأنعام : ٧٧)

ولم يتعجل إبراهيم النتيجة ، فالإقناع يحتاج إلى صبر ولهذا انتظر إبراهيم إلى الصباح حتى بزغت الشمس فقال لقومه « هَذَا رَبِّى » ، فلما غابت الشمس لم يجد بدّاً من إعلان النتيجة الحتمية ، فلا الأصنام تصلح آلهة تعبد ، ولا الكواكب والنجوم .

إنّ الإله الواحد .. هو الذى خلق الشمس والقمر والإنسان .. وهنا أعلن إبراهيم الحقيقة :

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام : ٧٩)

وهكذا أراد إبراهيم الخليل بالدليل العقلى أن يقنع قومه بأن يرتفعوا عن عبادة الأوثان والمخلوقات إلى عبادة الله الواحد الذى لا شريك له ..

الموقف الثانى : عندما أراد الخليل أن يضع قومه أمام الأمر الواقع .. حيث أراد أن يقنعهم بأن الأوثان لا تستطيع أن تدفع عن نفسها شيئاً .. فعزم على أن يحطمها فى يوم عيدهم فلما رجعوا فوجئوا بما حدث فتساءلوا : ﴿ مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا ﴾ (الأنبياء : ٥٩) وجاء الجواب : ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ (الأنبياء : ٦٠) ، وجىء بإبراهيم على رءوس الأشهاد وجرت له محاكمة : ﴿ أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ (الأنبياء : ٦٢) ، ويضعهم إبراهيم أمام عقولهم ليحتكموا إليها ، فقال لهم : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ (الأنبياء : ٦٣) . وفعلاً حدثت صحوة فكرية لدى القوم يحكيها القرآن فى قوله تعالى : ﴿ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (الأنبياء : ٦٤)

إنها صحوة رجع فيها القوم إلى أنفسهم وتحاكموا إلى عقولهم .. ولكنها لم تدم طويلاً بل عادوا إلى ضلالهم ويحكى القرآن هذه الردة الفكرية فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ (الأنبياء : ٦٥) ، واستمر الحوار ولكنه لم يكن مجدياً عقب النكسة الفكرية التى أصيبوا بها ووصلوا إلى نقطة اللاعودة ، إذ حكموا عليه بالإعدام حرقاً ، ويحكى القرآن الكريم هذا الموقف فى قوله سبحانه : ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ (الأنبياء : ٦٨) ، وهكذا لم يحترموا عقولهم فكانوا من الخاسرين ، يقول تعالى : ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ ﴾ (الأنبياء : ٧٠)

مجال العقل والتفكير

ليس هناك سبب يلزم الإنسان بأن يحجر على عقله ويحدد مجال نشاطه ، فلم يخلق الله حاسة فى الإنسان أو يهبه ملكة من ملكات نفسه إلا ويحثه على استخدامها الاستخدام الأمثل .

والعقل - كما ألمحنا - هو أفضل ما تميز به الإنسان ، وبالتالى فإن استخدام العقل

ضرورة ربما تفوق عند الإنسان ضرورة الطعام والشراب .. ويجدر بنا أن نحدد مجال التفكير وعمل العقول حتى لا تضل بنا السُّبل .

ومجال العقل ـ بداهة ـ لا يتعدى حدود العالم الذى نعيش فيه ، فالعقل له إمكانياته كأى قدرة بشرية .. ولا أدلَّ على ذلك من هذا التطور الذى نشهده كل يوم فى العلم التجريبى ، ولو أن العقل البشرى غير محدود لكان علمه غير محدود مثله ، ولوصل إلى الأشياء كلها دفعة واحدة ، ولكن ما نراه يمثل طاقة محدودة للعقل البشرى .

إن ما نعيشه من حضارة وتقدم هو نتاج عمل آلاف من البشر .. وصل كل واحد منهم إلى جزئية بنى عليها غيره ، فاللاحق يرتكز على ما وصل إليه السابق ؛ يضيف إليه ويعدِّل فى نتائجه .

وهكذا لا يزعم أحد أنه يعلم كل شىء ، ولا يستطيع أن يتصدر للفتوى فى كل مجال ، وهكذا يبدو لنا أن العقل البشرى طاقة محدودة كباقى طاقات الإنسان .. وإن كان العقل يفوقها كثيراً ، ولكن إلى حدود .

وإذا كان العقل طاقة محدودة فمجاله العالم المادى المحدود الذى نعيش فيه .. ووسائله المعروفة ، فهو يستعين بالمُبصرات والمسموعات وغير ذلك من وسائل الإثبات التى نعلمها.. ثم يبنى عليها ويستنبط منها ما يشاء .

العقل وعالم الغيب

لما كان العقل البشرى طاقة محدودة تتعامل مع عالم المادة .. أو عالم الشهادة كما يُسمِّيه القرآن الكريم أحياناً كان لا بد للرسالات أن تحترم هذا العقل ولا تلغيه ولا تستهين به ، وهذا قول لا نلقيه على عواهنه وإنما يشهد به واقع الرسالات الإلهية جميعاً ، فما وجدنا رسالة – فى أصولها السليمة – تقود الإنسان معصوب العينين معطل العقل إلى مصير يجهله أو إلى غاية لا يستطيع أن يتفهم أسسها ، وهذا لا يختلف فيه نوح عن هود عن موسى عليهم السلام إلى خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم .. وقد رأينا مثالاً على ذلك فى استعراضنا للمحاجّة بين أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام وقومه .. وفى القرآن تفصيل أكثر لا مجال لعرضه هنا .

ومن احترام الرسالات لعقل الإنسان أنها حددت له كيفية التعامل مع الغيبيات وأمدَّته

بالوسائل والأسباب التى تكفل له الوصول – باطمئنان – إلى الحقائق .. فاتخذت من عالم الشهادة دليلاً على عالم الغيب .. وضربت له الأمثلة من العالم الذى يعيش فيه ، وقد ضرب الرسول ﷺ مثالاً على ذلك فى أول مبعثه فكان مما قال « ... والله لتموتُنّ كما تنامون ، ولتبعثُنّ كما تستيقظون ... » فاستشهد بالمشاهد على الغيب .. كما دلّل القرآن على نفس القضية بالنبات ، فضرب مثل الحياة الدنيا :

﴿ كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا ... ﴾ (يونس : ٢٤)

فنهاية الدنيا مثل نهاية النبات .. والإنسان يعايش نهاية النبات فى دورات متعددة وبه مثل نهاية الدّنيا التى لم يعايشها .

وهكذا نعيم الجنة وعذاب النار ضُرِبَتْ لهما الأمثلة الكثيرة وفاءً لحق العقل فى أن يقوم بدوره ولا يعطّل ، فقال تعالى عن نعيم الجنة وأهلها :

﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ * يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ . بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ (الصافات : ٤٤ – ٤٧) .. وهكذا ... وهكذا .

أما عن عذاب جهنم – والعياذ بالله – فيكفى أن نذكّر القارئ بقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴾ (الدخان : ٤٣ – ٤٦)

وعلى العقل أن يدرس ويستنتج ، ليصل إلى حقيقة عالم الغيب .. أو على الأقل إلى تصور عام عنه ، وذلك عن طريق ما يعلمه من حقائق عالم الشهادة .

ومن احترام العقل لنفسه ألاّ يخوض فى حقائق عالم الغيب إلا بمقدار ما أُخبِرَ عنه .. فإنّ الغيب ليس من مجالات العقل . فالعقل – كما أسلفنا – لا يتعدى حدود العالم الذى نعيش فيه .

من حقائق عالم الغيب

* أولى الحقائق فى عالم الغيب : الله الواحد الأحد الفرد الصّمد .. وهذه حقيقة الحقائق ، بل ولا حقيقة سواها .. لا إله إلا الله وحده لا شريك له .. بيده الأمر كلّه .

* ومن حقائق عالم الغيب : الملائكة.. والقيامة.. والبعث.. والحساب.. والجنة والنار.

* وكما قلنا : لا مجال للعقل ، فهو عاجز عن الوصول إلى حقائق عالم الغيب ؛ لأنه لا يملك منها إلا ما يسوقه إليه الوحي الإلهي .

ولقد كان الوحي - على اختلاف الرسل وكثرة الرسالات - واضحاً كل الوضوح في حقيقة الحقائق وهي الوحدانية ، فما من رسول ولا نبي إلا دعا قومه للإيمان بالله الواحد الأحد ، وبيّن رسول الله محمد ﷺ هذه الحقيقة بقوله الجامع : « أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله » ، إن الله واحد لا شريك له .. وتلك حقيقة نطالعها في كل ما تقع عليه أبصارنا [١] .

ورغم ما تَعَرَّض له الإنجيل من الاختلاف وجهات النظر ومن ترجمات تفسيرية تنطق حسب نظرة أصحابها ، إلا أننا نستطيع أن نعثر على خيط التوحيد متناثراً هنا وهناك بين الرُكام ، ونستطيع أن نسوق هنا بعض العبارات ذات الدلالات الصريحة على الوحدانية ، منها :

* في سفر الخروج نجد هذه العبارة : « لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما ، مِمَّا في السماء من فوق ، وما في الأرض من تحت ، وما في الماء من تحت الأرض ، ولا تسجد لَهُنَّ ولا تعبدهُنَّ » .. وهذا من العهد القديم « التوراة » حسب ما هو موجود الآن في أيديهم .

* في يوحنا (٥ : ٤٤) : « تقبلون مجداً بعضكم من بعض ، والمجد الذى من الإله الواحد لستم تقبلونه » .

« ليس إله إلا واحد » (كو ٨ : ٤)

وهذه النصوص واضحة وصريحة في أنَّ الإله واحدٌ لا شريك له .. وهو ما يتمشى مع الفطـرة السوية والعقيدة الصحيحة .. وهكذا نصل إلى أن الحقَّ الأوحد ، والحقيقة التي لا يختلف عليها أحد ، هي أن الله واحد لا شريك له . وقد أعظمت الرسالات النكير على كل من يتخذ من دون الله شركاء .

---

(١) ومن أوضح الأدلة على أن التوحيد هو الأصل أن كل من اتخذ لله نداً أو شريكاً أو ادَّعى له الولد يبدأ بهذا ثم ينتهي إلى القول بالتوحيد ، فالثلاثة واحد ، أو الأصنام ليست سوى وسيلة للوصول إلى الله الواحد ، وهكذا .. فتأمله .

ويجلّي القرآن هذه الحقيقة في قوله تعالى : ﴿ إنْ هِيَ إلاّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وآبَاؤُكُم مَا أنزلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾
(النجم : ٢٣)

ويبين الله تعالى الحقيقة الواضحة يوم القيامة : ﴿ إذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعوا ﴾.
(البقرة : ١٦٦)

﴿ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ القَوْلَ إِنَّكُم لَكَاذِبُونَ * وأَلْقَوْا إِلى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ .
(النحل : ٨٧ ، ٨٧)

والخارج على هذه الحقيقة خارجٌ على حكم الله تعالى ومنكرٌ للحقيقة ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ باللهِ فَقَدِ افْتَرَى إثْماً عَظِيماً ﴾
(النساء : ٤٨)

وقال : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ باللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أو تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾
(الحج : ٣١)

والله يقول الحقّ وهو يهدى السَّبيل ..

المسيحية بين العقل والأوهام

من اللافت للنظر أن زعماء المسيحية اللاهوتيين .. ونُظراءهم من المفكرين يُحاولون دائماً تجاوز أحكام العقل عند تناول أمور العقيدة زاعمين أنه ليس للعقل دور في مثل هذه الأمور .

ولعلنا في حاجة إلى استعراض بعض آراء الكُتّاب في هذا الصدد ، يقول أحد الكُتّاب : « وهذه الكائنات الثلاثة – يقصد الأقانيم في زعمهم – لا تخضع لمفهومنا البشرى لأنها تختلف كل الاختلاف عن جميع الكائنات التى عرفناها .. ونعرفها » ثم يستمر قائلاً « أما وإننا بعقولنا البشرى نعجز عن فَهْم هذه الحسبة السماوية ، إذاً فهى ليست من اختراعنا الأرضى » [١] . بهذا يحاول الكاتب أن يخرج بالأمر عن دائرة التفكير العقلى ، متجاهلاً المنطقية في التفكير كما سنرى قريباً .

---

(١) كتاب : الله واحد ، تأليف بولس فرج ، ص ٤٣ .

ثم يُعلق الكاتب نفسه على بعض ما ذكره فيقول : « ... فهذه الألفاظ في تراكيبها ليست صحيحة لغوياً لأنّها لا تسير على منهج اللغة ، ولكن ما حيلتنا ونحن نتكلم عن كائن إلهي موجود قبل اللغة ، ثم أيهما أسهل في الكسر هل الأسهل أن نكسر اللغة ... أم نكسر هذا الكائن الإلهي لكي يتفق مع اللغة ؟ ... » .

نرى – إذن – أن العقيدة عند الكاتب لا تُساير النظام العقلي البشري كما لا تُساير النظام اللغوي البشري ، وكأنّ الخالق – سبحانه – كان عاجزاً عن أن يخلق الإنسان ، ويعدل في عقله ولسانه لكي يستقيم نظام العقيدة كما يُريده الله سبحانه وتعالى .

ونقف أمام كاتب آخر يُقدّم للمفكرين مفتاحاً للتهرب من حكم المنطق ، فيقول : « ويدل الاختيار على أن إفراد بعض الآيات المقدسة والتشبث بظاهر معناها فقط قد أدى ويؤدى إلى ضلالات كثيرة ومضرة » [1] .

فقد دلّتْ التجربة العقلية- عندهم- على أن التشبث بظاهر العبارات مدعاة للضلال.. إذن فلا بد لكل إنسان أن يُعطِّل عقله ويقبل قولهم ، وكأنّ تفسيرهم أجلى وأوضح من دلالات الكتاب المقدس عندهم .

ويُفسر نفس الكاتب [2] : « تجربة إبليس للمسيح حين طلب منه أن يطرح نفسه ... حسب اعتقادهم فيقول : إن الوجه الآخر لهذه التجربة هو دعوة إبليس للمسيح ليتخذ سياسة الإدهاش العقلي وسيلة بها يجعل الناس يؤمنون به فيعتمد على قوة المعجزة لا على قوة الحق وعلى الإقناع الفكرى لا على الشعور القلبي » .

هكذا ببساطة يجرد الكاتب عقيدته من مفهوم العقل والتفكير العقلي ، ويرى التفكير العقلي وسيلة لسلطان الشيطان ، فيقول : « يكون إبليس قد حفظ سلطته على الناس » .

نكتفي بهذه الإشارات للتدليل على أن زعماء المسيحية يحاولون أن يسلبوا أتباعهم نور العقل .. ليقودوهم بالهوى بعيداً عن سلطان العقل ونوره .

مجال العقل

في الحديث السابق وجدنا أن سلطان العقل محدود بحدود عالم الشهادة ، وأما سلطانه

(١) سيرة المسيح ، أعادت كتابته كنيسة قصر الدوبارة ، ص ٨٩ .
(٢) المصدر السابق .

على عالم الغيب فمحدود بما يعلمه عن طريق الوحى الإلهى .. ولقائلٍ أن يقول إن زعماء المسيحية يروّضون أتباعهم على الالتزام بالوحى الذى يعتقدون أنه حق ، فهم يوقفون العقل عند حدود الوحى .. فالثالوث – حسب زعمهم – موجود فى الإنجيل ، والحقيقة خلاف ذلك إذ إنّ هناك بعض الحقائق التى يجب إظهارها للباحثين ومنها :

١ – الوحى فى المسيحية .

٢ – الإله وخضوعه لقانون المادة عندهم .

٣ – مسألة الخطيئة .

وهذه أمور لا بُدّ من الوقوف عندها وإخضاعها لمقاييس العقل والمنطق ، وإلا انهارت الرسالات التى ما نزلت إلا لتخاطب الإنسان بما يفهم ويعقل ، وتأخذ بيده عن طريق إمكانياته التى منحها له الله سبحانه وتعالى .

الوحى الإلهى

حينما يخضع الوحى فى المسيحية للعقل لا نسأل – بداهة – عما إذا كان هناك وحى للمسيح عيسى بن مريم أم لا ؟ ولكن سؤالنا عمّا فى أيدى النصارى من كتب وأناجيل وهل تعبر عن حقيقة الوحى كما نزل من السماء ؟

والمتبادر إلى الذهن مما يقوله كُتّاب المسيحية أن ما بأيديهم يُمثل وحياً منزّهاً ؛ ولا سبيل عندهم إلى الشك فيه حتى ليقول قائلهم : « ... ولكن قادة المسيحية شعروا بضرورة تدوين أخبار حياة المسيح لتبقى مرجعاً .. بعيدة عن كل شبهة أو تلاعب أو تحريف ... فعمد البعض بوحى من الروح القدس إلى تدوين الإنجيل فى كتابه فكانت الروايات الأربع التى نسميها الأناجيل الأربعة » [1] .

وهكذا نرى القطع والجزم بكل شىء فهى بعيدة عن كل شبهة ... إلخ ، وهى وحى من الروح القدس إلى الكُتّاب الأربعة الذين كتبوها ، فهل هذا الكلام صحيح ؟ .. وللإجابة على ذلك فلا سبيل لنا إلا كتابات المسيحيين أنفسهم ، وأناجيلهم ، نستشهد بها .

(١) المرجع السابق ، ص ١٥ ، ١٦ .

* يقول لوقا فى أول إنجيله : « إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة فى الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخداماً للكلمة ، رأيت أنا أيضاً إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالى إليك أيها العزيز ثاوفيلس » ، ويشير هذا النص إلى الآتى :

* إن هناك الكثيرين الذين ألّفوا قصة ، والمسألة لا تعدو رغبة كل واحد فى أن يكتب قصة ، حكاية ... إما لنفسه أو لبعض أصدقائه .

* إن كتابة لوقا لقصته كانت بدافع من عند نفسه إذ رأى أن يكتب .

* إن قصة لوقا كانت رسالة شخصية إلى « العزيز ثاوفيلس » .

وهكذا ينقض الإنجيل ما يزعمه كُتّاب المسيحية من أن ماكتبوه كان بالوحى من الروح القدس .. وهو ما سنتأكد منه بعد قليل .

يقول أحد الكُتّاب : « أما يوحنا فقد كتب البشرى بعد انتشار المسيحية فكتب لتوضيح بعض الأمور . وللرد على بعض الأفكار التى دخلت إلى التعليم المسيحى »[1] فكتابة يوحنا – إذن – مجرد استجابة لرغبة كاتب فى الرد على بعض الأفكار بصرف النظر عن نوعية هذه الأفكار ، فأين الوحى هنا ؟

وهناك نقطة هامة لا يلتفت إليها كثير من الباحثين وهى مرتبطة بما قاله لوقا فى بداية كتاباته .. ذلك أن اختيار الأناجيل الأربعة قد تم بعد قرون من حياة المسيحية ، إذ عقد المجمع المسكونى الأول سنة ٣٢٥ م أى بعد المسيح بأكثر من ثلاثة قرون كاملة ... والسؤال الذى يفرض نفسه الآن : كيف عاشت الكنيسة هذه القرون بلا كتاب معين ؟ إذ لا يستطيع أحد أن يزعم أن الكنيسة كانت تعيش على كتاب من هذه الكتب أو غيرها . ولا سبيل إلى الجزم بشيء فى هذا الصدد .

والأخبار تدلنا على أن المجتمعين فى (نيقية) حيث الاجتماع المسكونى الأول ، كانوا مئات من الطوائف والأفراد ، وبيد كل منهم كتاب يريد أن يقدمه ولما احتدّت المناقشات جمع قسطنطين عدداً قليلاً – حوالى ثلث المجتمعين – وأقروا بعض الرسالات ، وكان إقرار هذه الرسالات خالياً من كل سند عقلى أو شرعى ، إلا سند الإمبراطور ، ومما

(١) المرجع السابق ، ص ١٥ ، ١٦ .

يدلنا على ذلك أن كثيراً من الطوائف لم تقتنع بما وصل إليه المجتمعون فى (نيقية) ، فمثلاً :

* أُقيم مَجْمَع آخر فى (صور) تحت رعاية نفس الامبراطور بعد المجمع الأول بسنوات معدودات (٣٣٥ أى بعد عشر سنوات تقريباً) ووصل فيه المجتمعون إلى عكس ما وصل إليه أصحاب المَجْمَع السابق .

* إن إنجيل (برنابا) ظلَّ متداولاً ، مقروءاً حتى صدر الأمر البابوى بتحريمه بعد مجمع نيقية بأكثر من مائة وخمسين سنة .

وقد أصدر البابا جلاسيوس الذى اعتلى عرش البابوية سنة ٤٩٢ أمراً بتحريم قراءة مجموعة من الكتب ، ومنها إنجيل برنابا الذى يقطع بوحدانية الله وأن المسيح عبد الله ورسوله وأنه لم يُصْلَبْ .. بل ويتنبأ بالرسول محمد ﷺ [(١)] .

* ولعل فيما يرويه المؤرخون عن قضية إسلام الصحابى الجليل سلمان الفارسى ما يؤنس به لتوضيح الفكرة ، فلقد كان سلمان ابناً لأحد الأثرياء ، وكان يعمل فى الإشراف على ضيعة أبيه ، وقد سئم من التردد على معابد النار الوثنية فى بلاد فارس ، فمر ذات يوم بصومعة أحد الرهبان فأعجبته عبادته فظلّ يختلف إليه حتى عرف أبوه بأمره فحبسه ، ولكنه أفلت من الحبس وذهب إلى الراهب ولازمه حتى حضرته الوفاة ، فقال سلمان للراهب : بماذا توصينى ؟ فقال له : يا بنىّ لم يبق فى هذه البلاد أحد على ما نحن فيه ، ولكن أظلنا زمان يبعث فيه نبى فى بلاد العرب من ولد إسماعيل ، فانطلق سلمان مع قافلة أعطاهم ما يملك على أن يأخذوه معهم إلى جزيرة العرب ، ولكنهم غدروا به وقيدوه ثم باعوه رقيقاً ، وعاش سلمان فى الرق حتى أكرمه الله بالإسلام فأُعتق [(٢)] . وهذه رواية – كما قلنا – نأنس بها لتوضيح مدى الانهيار الذى لحق بعقيدة النصارى .. وحيث ادلهمت الظلمات واشتدت الحاجة إلى النور ، وكان النور فى القرآن ورسول الإسلام .

وإذا كان الأمر على هذه الصورة ، فهل يجوز لعاقل أن يُسلِّم بما تسوقه الكنيسة من إطار العصمة حول الوحى فى المسيحية ؟

(١) انظر كتاب : « محمد فى التوراة والإنجيل والقرآن » تأليف إبراهيم خليل أحمد ، ص ١٤٠ .

(٢) راجع فى قصة إسلام سيدنا سلمان رضى الله عنه كتب التراجم مثل : حلية الأولياء لأبى نعيم ، والطبقات الكبرى لابن سعد .

لقد حسم القرآن الكريم قضية الوحى فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (النساء : ٨٢)

ووصف الوحى أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ (الزمر : ٢٨)

وغير ذلك من الآيات البينات التى لا تستهين بعقل الإنسان وفكره ... والله يقول الحقّ وهو يهدى السَّبيل .

الإله وخضوعه لقانون المادة

إنّ الإله فى الإسلام مثلاً لا تُدركه الأبصار ولا تُحيط به العقول ، وهذا أمر مقبول إذ الديانة الإسلامية اعتبرت الإله غيباً مطلقاً ومخالفاً للمادة كما قال تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فى الأرض ولا فى السَّماء ﴾ (الشورى : ١١)

ولذلك فللعقل البشرى حدوده التى يجب أن يلتزمها عند مناقشته لقضية الألوهية ، وقد زلّتْ أفهام بعض فلاسفة المسلمين حينما توغلوا فى البحث فى ذات الله تعالى ، ووقعوا – بقصد أو غير قصد – فى التجسيم والتشبيه ، وذلك ما يرفضه الإسلام [1] .

أما الإله فى المسيحية فيزعمون أنه تجسّد وصار بشراً سوياً ، فهو قد مرّ بالطريق الذى ينزل فيه كل البشر إلى الأرض من بطن المرأة فرحمها ، وعاش مع أمه ، ثم تعلم ، وخدم فى الهيكل ، وأكل وشرب ، وتحدث مع الناس ، وفرح وحزن ، وحضر الأفراح ، وطُورد ، وأمسك به طالبوه ، ونفذوا فيه حكم الإعدام كما زعم النصارى .

* نعم خضع المسيح لكل قانون مادى... أفيجوز أن يخضع الإله – عند المسيحيين – لكل قوانين المادة إلا قانون العقل ؟ وهل يرفض عاقل من المسيحيين استخدام العقل للوصـول إلى صحة العقيدة ؟ . وهل كان الإله عاجزاً – سبحانه – عن أن يجد صيغة ملائمة يقنع بها البشر من خَلْقه بصحة الثالوث المزعوم وصدق الصلب عن الخطيئة ؟

إنّ الله خلق العقل ليميز به الإنسان عن سائر خلقه ، فلماذا يتصادم القول بالتثليث مع العقل ؟ لماذا لا نجد توافقاً عقلياً فى مقولات كثيرة فى الديانة المسيحية ؟ أهى غفلة

(١) استغل بعض الباحثين من غير المسلمين أقوال هؤلاء الفلاسفة وجمعوها لِيُدللوا بها على القول بالتجسد والثالوث ، وهم يعلمون أن الحكم للقرآن والسنة فى موضوع الألوهية ، لا لقول أى بشر مهما كان .

من الله سبحانه ؟ أم جهل منه – تعالى عن ذلك علواً كبيراً – بطبيعة البشر فاستعلن لهم – حسب زعمهم – بصورة بعيدة عن عقولهم ؟ أم أنها ألغاز قصد بها الإله عندهم أن يهلك البشر من حيث أراد أن ينجيهم ؟

الحقيقة أننا نرى أن الواجب على كل إنسان أن يستعمل عقله ، ولا يعطله ، فليس في المسيحية – فيما نرى – أمور اعتقادية يجب أن يتوقف العقل عندها ، بل إنّ كل أمور العقيدة في المسيحية يجب أن تخضع لحقيقة العقل .. كما خضعت هذه الأمور لقوانين المادة الدنيا ، والعقل بها أولى .

قد يقول لكَ قائل خذْ هذه المسألة بروحانية ، وعشْ فيها بوجدانك وتأملها بعاطفتك حتى تستقر في نفسك ، وهذا – لعمر الحق – عين التشويش ، إذ لا يفعل الوثني أو المشعوذ سوى ذلك حتى يدخل إلى النفوس ، ويتحكم في الناس ، بل ماذا يفعل الشيطان بالناس غير ذلك ؟ إنه يدعوهم إلى الهوى .. إلى الشهوات ويعطل عقولهم ، فيصل بهم إلى الضلال .. نعوذ بالله من ذلك .

وقد يتساءل البعض ، ما سر إقحام قضية الألوهية وخضوعها للعقل في هذا المجال ، والبحث دراسة عن الخطيئة والخلاص منها في الأديان الثلاثة .. وجوابنا ما سبق أن قلناه ونكرره أن ماهية الخطيئة والخلاص في المسيحية تتشابك مشاربها وتتعدد وجهاتها .. فلا ينفك البحث فيها عن البحث في غيرها وخصوصاً الألوهية والوحي .

إن نظرة المسيحيين للخطيئة وتحديدهم لمفهومها جعلهم ينزلقون إلى القول ببنوة المسيح لله – سبحانه وتعالى – ويذهبون بالأمر إلى أنّ المسيح صُلب تكفيراً عن خطيئة البشر . وهكذا تداخلت الأمور مما حدانا إلى الإشارة إلى وجوب خضوع أمور العقيدة – في المسيحية – برمتها إلى العقل .. ولا مجال غير ذلك .. أمام من ينشد الحقيقة .. أما معصوب العينين فلا شأن لنا به .

صَلْب المسيح فداء عن الخليقة

يرى المسيحيون أنّ العالم من عهد سقوط آدم في الخطيئة ، وهبوطه وبنيه إلى الدنيا .. مبتعد عن الله بسبب هذه الخطيئة [١] ولا أدرى مصدر هذا الاعتقاد فلم أجد له سنداً

(١) انظر : محاضرات في النصرانية ، للإمام محمد أبي زهرة ، ص ١٢٥ .

شرعياً .. أو نصاً مقدساً - عندهم - من التوراة أو الإنجيل سوى ما ورد من إخبار عن ذلك . والحق أنه من العجيب أن يخلو الكتاب المقدس من بيان واضح ونصوص صريحة لا تحتمل التأويل حول هذه النقطة التي يقوم عليها المعتقد المسيحي كله تقريباً .. ونسوق بعض عبارات الإنجيل التي بنى عليها المسيحيون أمر الخطيئة العامة :

* « وَمن أراد أن يصير فيكم أولاً يكون للجميع عبداً . لأن ابن الإنسان أيضاً لم يأتِ ليُخْدَم بل ليخدِم » (مرقس : ١٠ : ٤٤ ، ٤٥)

* « أجاب يسوع وقال لهم : انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه ، فقال اليهودي في ست وأربعين سنة بني هذا الهيكل فأنت في ثلاثة أيام تقيمه ، وأما هو فكان يقول عن هيكل جسده ، فلما قام من الأموات تذكر تلاميذه أنه قال هذا .. فآمنوا بالكتاب والكلام الذي قاله يسوع » (يو ٣٠ : ١٨ - ٢٢)

* « انظر رسالة رومية (٣ : ٢٣) وما بعدها : « إذ الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله متبرّرين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح فأين الافتخار ؟ قد انتفى ... إذاً نحسب أن الإنسان تبرّر بالإيمان بدون أعمال الناموس ... » .

(انظر الرسالة إلى أهل رومية ٥ : ١٠ وما بعدها) .

* « وفي الغد نظر يوحنا يسوع مقبلاً إليه فقال هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم ... » (يو ١ : ٢٩)

وهذه النصوص - في رأيهم - تتحدث عن الفداء - كما يتصورونه - فداء بالدم كي تُغْفَر الخطيئة الأبدية التي لا يمحوها شيء في قانون الله عندهم سوى ما حدث .

والواقع أن مثل هذه النصوص لا تُجيب على تساؤلنا ، فنحن نسأل : هل حقاً هناك خطيئة توارثها الأبناء عن الآباء من لَدُنْ آدم ؟ . فإنْ قيل نعم سألنا عن النص المقدس الذي يجزم بوجود مثل هذه الخطيئة ، أو ما الدلائل العلمية والعقلية التي تؤيد ذلك ؟

إن العبارات التي سُقناها تتحدث عن نتيجة لا عن مقدمات ، وهي أن هناك حمل الله .. وأن الهيكل سينقض .. إلخ ، ولكن لماذا ؟ ليرفع خطية العالم ، وما هي ؟ وما دليل وجودها وعدم غفرانها ؟

إنْ إصرارنا على أن يكون هناك نصٌّ ليس مرجعه التعنت ، وإنما مرجعه الحرص على

الحقيقة ، لأن الأمر يتعلق بموت إله أو نصف إله كما يدعون ، فلا يعقل ألا يسبق هذا العمل الخطير إشعار يبينه بحيث لا لبس ولا غموض .

أم هل يجوز أن يترك هذا الأمر للأخذ والرد تتصرف فيه الأفهام على مقدارها وترتكز فيه النفوس على هواها ؟

إن الأمر فى مجال علاج الخطيئة ، فكان يجب ألا يكون هناك مجال أو باب مفتوح لخطيئة مرة أخرى ، فندع الناس للحدس والوهم ، وبذلك يقع الكثيرون فى الخطأ من حيث أرادت العناية الإلهية أن ترفع عنهم الخطيئة .

وخلاصة القول : أننا لا نعوّل إلا على النصّ القاطع الصريح الدال على وجود خطيئة أبدية .. وهذه الخطيئة لا تُغفر إلا بالفداء ، أما فهم الفاهمين وتأولات المتأولين فلا تساوى عندنا شيئاً .

والآن نستعرض وجهة نظر المسيحيين فى الخطيئة وفدائها .. ومدى تصويرهم لحقيقتها عندهم :

يرى المسيحيون أنّ من صفات الله العدل والرحمة ، وبمقتضى العدل كان على الله أن يُعاقب ذرية آدم بسبب الخطيئة التى ارتكبها أبوهم وطرد بها من الجنة ، واستحق هو وأبناؤه البعد عن الله بسببها . وبمقتضى صفة الرحمة كان على الله أن يغفر سيئات البشر ، وحلاً لهذا الإشكال العويص لم يكن هناك منْ طريق للجمع بين العدل والرحمة إلا بتوسط ابن الله ووحيده وقبوله أن يظهر فى شكل إنسان وأن يعيش كما يعيش الإنسان ثم يُصلَب ليُكفّر عن خطيئة البشر[1] .

ويصور الإنجيل هذه القضية بقوله : « وإن ابن الإنسان قد جاء ليُخلص ما قد هلك ، فبمحبته ورحمته قد صنع طريقاً للخلاص .. لهذا كان المسيح هو الذى يُكفّر عن خطايا العالم ، وهو الوسيط الذى وفّق بين محبة الله تعالى وبين عدله ورحمته ، إذ إن مقتضى العدل أن الناس كانوا يستمرون فى الابتعاد عن الله بسبب ما اقترف أبوهم ؛ ولكن باقتران العدل والرحمة وبتوسط الابن الوحيد وقبوله للتكفير عن خطايا الخلق قرّب الناس من الرب بعد الابتعاد » .

(١) راجع : محاضرات فى النصرانية ، للإمام محمد أبى زهرة ، والمسيحية ، د. أحمد شلبى .

يقول القس إبراهيم لوقا : « إنّ المسيحية تعلّم أنّ الله - لكى يجمع بين عدله ورحمته فى تصرفه مع الإنسان عقب سقوطه - دبّر طريقة فدائه بتجسيد ابنه الحبيب وموته على الصليب نيابة عنا ، وبهذا أخذ العدل حقه واكتملت الرحمة فنال البشر العفو والغفران وهذه هى نظرية الفدية » [(١)] .

وهكذا حاولوا- قدر جُهْدهم- شرح قضية الخلاص شرحاً لا يَثْبتُ أمام النظر السديد.

* وأول ما نلاحظه على هذا التصوير أنهم أثبتوا عجـز الله - تعالى عن ذلك علواً كبيراً - عجزاً لا يصح أن تكون له بعده ألوهية ، فهو - سبحانه - عاجز فى زعمهم عن التوفيق بين صفاته إذ أثبتوا تناقضها ، كما هو واضح .

* ومما نلاحظه أيضاً أنهم توهموا أن العدل الإلهى قد أخذ مجراه بصلب الابن الوحيد المزعوم ، فى حين أن الصَّلْب يُمثل أقسى أنواع الظلم الإلهى - لو حدث وتمّ كما يقولون - فأى عدل فى أن يؤخذ برىء بذنب لم يرتكبه ؟ وأى عدالة فى أن ينجو شخص من جريمة أُلصِقَتْ به ؟ وما ذنب الأبناء فى أن يتحملوا خطيئة أبيهم الأول آدم ويأتى آخر ليَحُطَّها عنهم ؟

هذه ملاحظات عابرة ، ولنا وقفة أخرى مع هذه القضية إن شاء الله تعالى .

الكنيسة وغفران الذنوب

ومما يلفت الانتباه أن الكنيسة قد أعطت لنفسها الحق فى أن تعفو عن الخطايا وتَحُطَّ الذنوب عن المذنبين ، وقد اشتهر فى أوروبا « صك الغفران » الذى كان يُعطى لمَنْ أراد فى مقابل مبلغ من المال ، ولعل نص الصك يغنينا عن التعليق عليه :

« ربنا يسوع المسيح يرحمك يا ... (يكتب الاسم) ويَحلّك باستحقاقات آلامه الكلية القدسية ، وأنا بالسلطان الرسولى المعطى لى أحلّك من جميع القصاصات والأحكام والطائلات الكنيسية التى استوجبتها ، وأيضاً من جميع الإفراط والخطايا والذنوب التى ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة ، ومن كل علة ، وإن كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا والكرسى الرسولى ، وأمحو جميع أقذار الذنوب وكل علامات الملامة التى ربما جلبتها على نفسك فى هذه الفرصة ، وأرفع القصاصات التى

---

(١) نقلاً عن كتاب : المسيحية ، د. أحمد شلبى .

تلتزم بمكابدتها فى المطهر ، وأردُك حديثاً إلى الشركة فى أسرار الكنيسة وأقرنك فى شركة القديسين ، أردُك ثانية إلى الطهارة والبر اللذين كانا عند معموديتك حتى إنه فى ساعة الموت يُغْلَق أمامك الباب الذى يدخل منه الخطاة إلى محل العذاب والعقاب ، ويفتح الباب الذى يؤدى إلى فردوس الروح وإن لم تمت سنين مستطيلة ، فهذه النعمة تبقى غير متغيرة حتى تأتى ساعتك الأخيرة باسم الآب والابن وروح القدس »[1] .

وهكـذا تُعطى الكنيسة نفسها الحق فى أن تمحو الذنوب والخطـايا وتُسقط العقوبات « والقصاصات » فى الماضى .. والحاضر .. والمستقبل ، وتزعم أنها تملك أن تفتح أبواب الفردوس الروحى وتغلق أبواب العذاب .

ولعل صك الغفران له صور لا نعرفها ، منها الشفهى ، والفردى والجماعى ، بل ولعله أخذ مجالات أخرى فليس من الضرورى أن تصدر الكنيسة هذا الصك التقليدى ، وقد سقناه لمجرد التنويه بدور الكنيسة فى الخلاص .

الاعتراف للكاهن

يعتقد النصارى أنه لا يمكن دخول الجنة إلا بعد الإقرار بالذنوب للقسيس ، وأنَّ كل مَنْ يُخفى منه ذنباً فلا ينفعه إقراره ، فهم فى كل سنة عند صيامهم يمشون إلى الكنائس ويقرُّون بجميع ذنوبهم للقسيس الذى يقـوم بكل كنيسة ، وفى سائر أوقاتهم ، ولكن لا يقر أحدٌ بذنب إلا إذا مرض وخاف الموت ، فإنه يبعث إلى القسيس فيصل إليه ويُقِرُّ له بجميع ذنوبه فيغفرها له ، ويكون الإقرار مصحوباً بالتأسف والندامة والعزم الثابت على ترك الخطيئة وعدم الرجوع إليها ، وهم يعتقدون أن كل ذنب غفره القسيس فإنه مغفور عند الله تعالى[2] .

ويتبين لنا من كل ذلك أن الخلاص فى المسيحية على ثلاثة أوجه :

الأول : الخلاص العام بالفداء .. حيث قدّم المسيح نفسه على الصليب -- حسب زعمهم -- لتكفير خطيئة البشرية .

الثانى : الخلاص بمغفرة الكنيسة لمَنْ يشاء على أى وجه ترضاه الكنيسة (صك الغفران .. نموذج لذلك) .

(١) راجع : محاضرات فى النصرانية ، والمسيحية (مرجعان سابقان) .
(٢) تحفة الأريب فى الرد على أهل الصليب ، عبد الله الترجمان الأندلسى ، ص ٩١ .

الثالث : الخلاص بالاعتراف تفصيلياً أمام القسيس .

وقد قمنا بالتعليق على بعض النقاط الخاصة بالموضوع فى أماكنها من البحث انتظاراً للتعليق العام على القضية كلها من وجهة نظرنا ، والله الموفق إلى الصواب .

تعليق عام

نود أن نسأل فى مجال الحديث عن الخطيئة والخلاص منها فى المسيحية ، هل حقاً صُلب المسيح تكفيراً عن خطايا البشر ؟ ونستطيع أن نحسم الأمر – من وجهة نظرنا نحن المسلمين – فنقول : إنَّ المسيح لم يُصلَبْ وذلك بنص القرآن الكريم .. وليس هذا بالأمر الجديد فهو مقطوع به منذ نزول القرآن الكريم ، وآمن به المسلمون .

ولكن ما نقطع به نحن المسلمين – يقطع به الإنجيل ذاته فى عبارات صريحة وقاطعة [1] فقد تنبأ المسيح بنجاته من القتل ، ولنقرأ ما جاء فى إنجيل يوحنا (٧ : ٣٢ – ٣٤) حين أرسل الفريسيون ورؤساء الكهنة خداماً ليمسكوه فقال لهم يسوع : أنا معكم زماناً يسيراً بعد ، ثم أمضى إلى الذى أرسلنى ، ستطلبوننى ولا تجدوننى حيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا ... » .

وهذا كلام صريح واضح الدلالة على أنهم لن يمسكوه ولن يقدروا عليه ؛ لأنه سيمضى إلى الذى أرسله .. وبتعبير القرآن : ﴿ **وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه** ﴾ (النساء : ١٥٧ ، ١٥٨) .. ويذكر (متى ٣٢ : ٣٩ ، ٢٤ : ١) ما قيل فى آخر مواجهة عاصفة حدثت بين المسيح والكهنوت اليهودى حيث قال لهم : « إنِّى أقول لكم إنكم لا تروننى من الآن حتى تقولوا : مبارك الآتى باسم الرب ثم خرج يسوع ومضى من الهيكل ... » أى أنهم لن يروه بعد ذلك مطلقاً .. وهذا يدل على أنهم لم يصلبوه ، بل صلّبوا غيره .

ومن الملابسات التى ساقها الإنجيل لحادث الصلب يتبين لنا أن المصلوب شخص آخر تماماً ، فعندما اقتربت الساعة وأراد الكهنة أن يقبضوا على المسيح بحثوا عمن يدلُّهم عليه لا على مكانه .. إذ جعل الدليل العلامة أن يقبله .. فقد علم اليهود – إذن – أنهم يبحثون عن شخص غامض إذ كيف يتوهون عن شخصية المسيح عليه السلام وهو قد وعظهم وجادلهم وقام فيهم بآيات عظيمة؟ وفى هذا دليل على صدق ما قاله لهم المسيح:

(١) انظر : المسيح فى مصادر العقائد المسيحية ، المهندس أحمد عبد الوهاب ، ص ٢٠٧ .

« إنكم لا ترونني من الآن ... » وذلك في آخر مواجهة بينه وبينهم .

جاء في رواية يوحنا عن ساعة القبض على المسيح أنه خرج إلى الجنود ، وقال لهم إنه هو المسيح فتراجع الجنود وسقطوا على الأرض أكثر من مرة ، مما يدل على أن الجنود لا يعرفون مَنْ سيقبضون عليه وقد ذهبوا في رعب غشى أبصارهم فأمسكوا بأقرب الناس إليهم واقتادوه .. فكان المقبوض عليه بهوذا الذى كان دليلهم كما تقول بعض الروايات .

تروى الأناجيل قول المسيح لتلاميذه : « كلكم تشكُّون فيَّ هذه الليلة » أى ليلة القبض عليه ومحاكمته ، ثم تحكى كيف أن بطرس سينكره ثلاث مرات قبل أن يصيح الديك .. وتقول الروايات إنه فعلاً أنكره ، بل وحلف أنه لا يعرفه .

وإذا كان لنا أن نستنبط شيئاً من هذا فإننا نقول إن المسيح – فعلاً – قد رُفِعَ ، والمقبوض عليه شخص آخر لا يعرفه بطرس ، أو يعرف أنه ليس المسيح حقاً ، ثم اختلطت عليه الأمور .

وهذه ملابسات تؤكد أنَّ المسيح – حقاً – لم يُصْلَبْ ، بل إنَّ الأمر لم يَعْدُ أن يكون خطأً شاع ، حيث صلبَ اليهود شخصاً ظنُّوه المسيح .. وأيدوا هذا الظن شفاءً لما في صدورهم واستنامة لأهوائهم ، وعلى هذا يكون أمر الخلاص لا أساس له من الصحة ، بل إنه محض أوهام لَبَّسها عليهم الشيطان ، وزيَّنها في قلوبهم .

هل يجوز أنْ يُكفِّر الخطيئة جسد الإنسان ؟

إنَّ المسيح عليه السلام إنسان وله نسبه البشرى من جهة أمه ، فكيف يُكفِّر عن خطيئة آدم بالتضحية بنفسه ؟

إن المسيحيين يُصرون على أن المسيح – ابن الله فى زعمهم – قد لاقى مصيره المحتوم ليُخلص البشر من خطاياهم [1] « فالذى اسمه يسوع (أى مخلص) هو الطبيب الشافى الذى يخلص من داء الخطيئة الوبائى القتَّال المستولى على جميع بنى البشر » .

وفى متى « اسمه يسوع لأنه يُخلصَ شَعْبهُ من خطاياهم » (١ : ٢١)

والنص – إذا صحَّ – صريح كل الصراحة فى خصوصية الخلاص لشعبه دون غيرهم ، وهى صفة كل الأنبياء المرسلين قبل الإسلام .

(١) سيرة المسيح ، ص ٣٥ ، صادر من كنيسة قصر الدوبارة .

وإذا سايرنا الادعاء بالتجسيد ، والحلول كما يراهما المسيحيون .. فإننا مطالبون بضرورة فَهْم السر الذى من أجله حدث كل هذا .

الله يتجسد ، أو يُرسل ابنه ليلبس الجسد الإنسانى فى بطن مريم .. لماذا ؟ ليُكَفَّر عن خطيئة آدم ؟ ولماذا لم يقع الاختيار على فداء آخر ؟ أى إنسان آخر ؟ فكل إنسان تتوفر فيه شبه من خصائص سيدنا عيسى المسيح عليه السلام ، مع التوقير والتعظيم للإعجاز فى خلقه عليه السلام .

* ففى كل منا نفخة إلهية .. نفخة الروح .

* ولكل منا جسد مادى .

وعيسى المسيح عليه السلام كذلك فيه الجانبان [1] ، فإنْ قيل إنّ الخطيئة فى حاجة إلى فداء أكبر من الإنسان ، إذ إنّ جسد الإنسان قد اختلط بالخطيئة وبالتالى لا يصلح فداء ، قلنا ، إن جسد عيسى هو من نفس نوعية جسد الإنسان .. فهو قد حمل فى بطن أمه وتغذّى بلبنها ، وبالتالى فقد ورث عنها كل ما لها من خصائص مادية ، فإن كانت خطيئة آدم - كما يزعمون - قد دنست البشر وأبعدتهم عن الله ، فإنّ عيسى المسيح عليه السلام قد لبس جسداً مدنساً . مما يُطل مزاعم التكفير من أساسها .

التكفير خاصٌ بطائفة أم عامٌ للبشر

سأضرب مثالاً من حياتنا قبل أن أتحدث فى هذه النقطة ، فلو افترضنا أن جمهوراً كثيراً أقام فى بناء ضخم ، واستمراً الإقامة فى هذا البناء ، وأحس رئيس البلد أنّ هناك خطراً يتهدد هؤلاء الناس فأرسل إليهم الرسائل والمكاتيب متتابعة ينصحهم أن يتركوا هذا المكان ، ثم أرسل لهم مندوبين عنه ، من وزرائه أو خاصته .

وكان فى كل مرة يستجيب البعض ويترك مكان الخطر إلى مكان آمن ، ويظل الآخرون على موقف الإصرار والرفض ، ولم يجد رئيس البلد إلا أن ينزل بنفسه إلى الميدان ليُخلص هؤلاء المساكين مضحياً براحته ، ومعه إمكانياته .

لو حدث ونزل الرئيس بعد كل ما بذله من نصح وتوجيه ، فهل يرضى بأن يكون

(١) والفارق أن النفخة الإلهية ابتدأ بها خلق عيسى عليه السلام ، وأما ما فى باقى البشر فهو من أثر النفخة الإلهية بعد تسوية آدم عليه السلام ، والله تعالى أعلم .

كبعض وزرائه ، فيُخلِّص جزءاً ، ويظل الباقون على حالهم ؟ أم أنه سيُصر - بما معه من إمكانيات وقدرات - على تخليص كافة المهددين .. ويدفعهم إلى مكان الأمان ؟ .. نقول : لو أن الرئيس جاء بمجرد ناصح ومخلِّص لفريق دون آخر لكان أعجز من بعض الذين أرسلهم ، إذ ربما استطاع بعض منْ بعث بهم أن يخلِّص أكثر مما خلَّصه الرئيس .

وهكذا لا نرضى بديلاً إلا أن يكون للرئيس القدرة على تخليص هؤلاء المهددين فى البناء الواقع فى مملكته . وإلا فليعتزل وليأت من هو أقدر .

ونعود فنسأل : لقد أرسل الله الرسل من لَدُنْ آدم ونوح إلى موسى عليه السلام ومَنْ بعده من المرسلين .. وبديهى أن غرض هذه الرسالات كان لهداية الناس وإنقاذهم من الهلاك ، ثم يقول المسيحيون : إنَّ اللهَ قد أرسل ابنه الوحيد ليموت على الصليب من أجل فداء البشر . فهل خلَّص هذا الابن البشر جميعاً من خطاياهم ؟ أم أنه لم يخلِّص سوى طائفة منهم ؟ فإن كان قد خلَّص البشـر جميعاً بما معه من قـوة وإمكانيـات فلا داعى إذن لفعل الخير أو الإيمان ، أما إذا كان قد خلَّص طائفة من البشـر - هم المؤمنون به - فهو لم يتميز عن غيره من الهداة أو الدعاة ، بل ربما تفوقوا عليه لأنهم بإمكانياتهم المحدودة صنعوا ما صنعه المسيح بإمكانياته الجبَّارة - على زعم أنه ابن إله - وعلى هذا فلم يكن هناك أىُّ داعٍ لنزوله ومهانته إذ ليس لها مقابل يُذكر .

فإن قيل إنه - بنزوله - قد خلَّصهم من الخطيئة التى تبعدهم عن الله تعالى ، ثم تركهم لشأنهم ، يبعـد منهم مَنْ يبعد ويقتـرب منهم مَنْ يقتـرب ، قلنا : إنَّ هذا أيضاً لا يساوى شيئاً لأنه يعود إلى نفس منطلق النقاط السابقة ، فما قيمة إله ينزل فيرضى بالهوان من أجل خطيئة لم يستطع أن يستأصلها بل ظلت فى طبيعة البشر ؟

الخطيئة ونسبة العجز إلى الله تعالى

إنَّ مفهوم الخطيئة والخلاص منها فى المسيحية تدل على أنهم ينسبون العجز والقصور إلى الله سبحانه وتعالى :

فهو أولاً : قد عجز عن مغفرة الخطيئة لآدم فور وقوعها لأن الأمر قد احتاج - فى مفهومهم - إلى أن يُدبر الله طريقة للمغفرة .. وأخيراً اهتدى - بعد آلاف السنين - إلى إرسال ابنه لهذا الفداء .

ثم إنه ثانياً : عاش كالبشر يتحمل الأذى والمطاردة وهو لا يستطيع أن يفعل شيئاً ، ثم إنه استسلم لأعدائه يصلبونه ويبصقون فى وجهه ويسقونه خلاً .

وهكذا نجد أن مفهوم الخطيئة والخلاص منها مرفوض بكل الأوجه .. عقلاً ونقلاً .. ينطق بذلك القياس ، وتصرح به الأناجيل ، فما هو مفهوم الخلاص الحقيقى ؟

مفهوم الخطيئة بين الأناجيل والرسائل

جدير بنا أنْ نتحدث عن الخطيئة كما تتصورها الأناجيل الأربعة المعتمدة فى المسيحية ، والخطيئة كما هى فى تصور الرسائل الملحقة بها ، لتتم لنا الصورة عن الخطيئة فى المسيحية بصفة عامة ..

أولاً : الخطيئة كما تصورها الأناجيل

تُصور الأناجيل الخطيئة تصويراً بسيطاً لا غموض فيه ولا إبهام ؛ لأن للخطأ جزاءه المعهود . ونقرأ عبارات فى الأناجيل توضح ذلك ، ولنقرأ ما جاء فى إنجيل متى فى الموعظة على الجبل :

« فمَنْ نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلّم الناس هكذا يُدْعى أصغر فى ملكوت السموات ، وأما مَنْ عمل وعلّم فهذا يدعى عظيماً فى ملكوت السموات ، فإنى أقول لكم : إنكم إن لم يزد برّكم على الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السموات ، قد سمعتم أنه قيل للقدماء ، لا تقتل ، ومَنْ قتل يكون مستوجب الحكم ، وأما أنا فأقول لكم إنَّ كل مَنْ يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم ، ومَنْ قال يا أحمق يكون مستوجب نارِ جهنم ، فإنْ قدّمتَ قُرباناً إلى المذبح وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً عليك فاترك هناك قُربانكَ قدام المذبح ، واذهب أولاً اصطلح مع أخيك ..

قد سمعتم أنه قيل للقدماء : لا تزن ، وأما أنا فأقول لكم إنَّ كل مَنْ ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها قلبه ، فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها ..

احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قُدام الناس لكى ينظروكم ، وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم .

خبزنا كفافنا أعطنا اليوم ، واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا ،

ولا تُدخلنا في تجربة . لكن نجنا من الشرير ، فإنه إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أيضاً أبوكم السماوى . وإن لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر لكم أبوكم أيضاً زلاتكم » . (متى : ٥ ، ٦ ، ٧) بتصرف [١]

وقد عددت الموعظة جملة من الخطايا نوجزها فيما يأتى :

* نقض الوصايا الصغرى ، ونشر ذلك بين الناس، فهذه خطيئة لا تُغْفَر، لأنه « يُدْعَى أصغر فى ملكوت السموات » .
* التساوى فى البرّ مع الكتبة والفريسيين يُعدُّ خطيئة لا تُغْتَفر لأنه حينئذ « لن تدخلوا ملكوت السموات » .
* القتل خطيئة تستوجب الحكم .
* الغضب بالباطل يستوجب الحكم ، كذلك فهو مساوٍ للقتل .
* مَن اتّهم أخاه بالحمق فإنه يستوجب نار جهنم .
* الزنا جريمة .
* النظر إلى المرأة بشهوة تستوجب قلع العين التى تعثرها .
* الرياء يَحْرِمُ من الأجر .

وهذه خطايا أو آثام تستوجب العقوبة ، وقد جعلت الوصايا معاملة الله للإنسان نداً لمعاملة الإنسان للإنسان .

* إن استرضاء الأخ مُقدَّمٌ على القربان ، لاسترضاء الله .
* تطلب الوصايا من الله المغفرة للذنوب جزاءً على مغفرة الناس بعضهم لبعض ، فَمَنْ غفر للناس غَفَر الله له ، ومن لم يغفر للناس زلأتهم لا يغفر لهم أبوهم السماوى .

وهكذا تلمس بجلاء ووضوح أنَّ الخطيئة واردة فى السلوك البشرى ، وأنَّ الباب مفتوح للتخلص منها بالتوبة ، وهكذا شأن الرسالة دائماً :

* التنبيه على خطر الذنوب .
* التحذير من ارتكابها .

(١) راجـع : اتفاق البشائر ، ص ٢٩ وما بعـدها ، ولا نجد لموعظة الجبل أثـراً إلا فى متى ولوقـا ، أما الإنجيلان الآخران فلم يذكرا عنها شيئاً كما يوضح الكتاب المذكور .

* الوعيد الشديد لِمَنْ يرتكب الخطيئة وعيداً يتسق مع خطورة الذنب ، وشدة العثرة .
* فتح باب الأمل أمام العصاة إذا تابوا ورجعوا وتسامحوا فيما بينهم .

وجاء (في إنجيل متى : ١٢ : ٣١ - ٣٦) ، وفي (مرقس ٣ : ٢٨ - ٣٠) ، عن الخطيئة التي لن تغفر : « لذلك أقول لكم كل خطية وتجديف يغفر للناس ، وأما التجديف على الروح فلن يغفر للناس ، ومَن قال كلمة على ابن الإنسان يغفر له . وأما مَنْ قال على الروح القدس فلن يغفر له لا في هذا العالم ولا في الآتي .

يا أولاد الأفاعي : كيف تقدرون أن تتكلموا بالصالحات وأنتم أشرار ، فإنه من فضلة القلب يتكلّم الفم . ولكن أقول لكم إن كل كلمة بطّالة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين » .

وفي مرقس : « ... ولكن مَنْ جدّف على الروح القدس فليس له مغفرةٌ إلى الأبد بل هو مستوجب دينونة أبدية .. لأنهم قالوا إن معه روحاً نجسه ... » .

وفي هذه العبارات نلمس ما يأتي :

* إن هناك خطية لا تُغفر ، ألا وهي التقوّل في الغيب بلا علم ، والتجديف على الروح القدس ، ومن أنواع التجديف على الروح القدس :

– أن يقولوا إن معه شيطاناً أو روحاً نجسة .

– أو يقولوا عن الروح القدس ما ليس لهم به علم ، ويزعمون أنه إله في الآلهة .

* فرّقت هذه النصوص في الحكم بين الروح القدس وهو غيب عن الناس (ولعله جبريل) وبين ابن الإنسان ، فجعلت التجديف على الروح القدس لا يغفر ، أما مَنْ قال كلمة على ابن الإنسان ، فإنها من ضمن التجاديف التي تُغفر ، وهذا التفريق له دلالته الخاصة والعميقة ، إذ لو كان المسيح ابناً لله تعالى لكان التجديف عليه أشد في الحكم ، وهذا مما يُؤكد أنّ المسيح عبد الله ورسوله .

وهذا يجرنا إلى الحديث عن خطيئة حذّر منها المسيح عليه السلام . فقد جاء في (متى ١١ : ٢ - ١٩) أن يوحنا سمع في السجن بأعمال المسيح فأرسل إليه ، وفيه : « العمي يبصرون ، والعرج يمشون ، والبرص يطهّرون ، والصُّمّ يسمعون ، والموتى يقومون ، والمساكين يبشّرون وطوبى لِمَنْ لا يعثر فيَّ » وكذا جاء في (لوقا ٧ : ١٨ - ٣٥) .

والجملة الأخيرة ذات مغزى يجب ألا يتوه من القارئ ، فبعد هذه المعجزات العظيمة يجب ألا يعثر (أى يقع ويسقط) فى المسيح أحد [١] .. والعثرة التى حذّر منها المسيح هى أن يزعم أحد أنه إله أو ابن إله ؛ لأنّ هذه الأعمال مدعاة للتهور فى الحكم ، إذ قد لا يصدق أحد أنها معجزات أيّد الله بها رسوله ، وليس مقبولاً أن تفسّر العثرة غير هذا التفسير إذ السياق يؤيده دون غيره . ومن هذا المنطلق قرأنا أن التجديف على المسيح (ابن الإنسان) ليس كالتجديف على الروح القدس .

وخلاصة القول : أنّ هناك خطايا وآثاماً ، منها ما لا يُغفر - فى عُرف الأناجيل - ومنها ما يمكن أن يغفر .

وهذا يدل على عدم الحكمة من الصلب .. فإذا كان الصّلبُ قد حدث - فى زعمهم - لرفع الخطيئة ، ثم وجدنا خطايا لن تُغفَر ، فليس للصّلب أى دافع إلا أن يكون اتباعاً للهوى والضّلال ، نعوذ بالله من ذلك .

ثانياً : الخطيئة فى تصور الرسائل المعتمدة لدى المسيحيين

وهذه الرسائل تبدأ بما يسمى « أعمال الرسل » وأول ما يلحظه القارئ على هذه الأعمال أنها مجهولة الهوية فلا يدرى مَنْ كاتبها ، وذلك عكس الرسائل بعد ذلك فهى مصدَّرة باسم كاتبها وهو بولس « غالباً » أو بطرس .. أما رسالة أعمال الرسل فلا يدرى مَنِ الذى قام بكتابتها [٢] وإنْ كانت الرسالة تُعلن اسم الشخص الذى كُتبتْ الرسالة إليه وهو « ثاوفيلس » .

(١) ورد نص آخر يقطع بأن التحذير الوارد هنا من العثرة فى المسيح هو ما أوردناه أى لا يعثر ويضل فى حقيقته ، بل يظل على إيمانه بأن المسيح بشر رسول ولا يراد به أن يشتمه أو يَسُبّه .. لأن النص التالى يقول « فكانوا يعثرون به » [متى ١٣ : ٥٧] ، [مرقس ٦ : ٣] وهذا حينما رفضه أهل الناصرة للمرة الثانية ، والفرق واضح بين العبارة التى أوردناها : « طوبى لمن لا يعثر فىّ » والعبارة الأخرى « فكانوا يعثرون به » فالأولى وردت عقب معجزات وحدثت من العثرة فى حقيقته باتخاذه إلهاً من دون الله أو ابناً لله .. أما الثانية فجاءت عقب رفض أهل الناصرة له فكانوا يعثرون به أى يسبونه ويشتمونه .

(٢) قيل : إن كاتبها هو أحد كُتّاب الأناجيل ، وهذا من أسباب القدح فيها والشك فى أصلها إذ إنها ليست وحياً .

ومما لاشك فيه أن كاتب هذه الرسالة شخص آخر غير كُتّاب الأناجيل ، كما أنه ليس (شاول) الذى دُعى (بولس) فيما بعد . وقارئ رسالة أعمال الرسل يتيقن من ذلك :

* فهى تتحدث عن أشياء لم يرها بولس الذى لم يرَ المسيح أبداً .

* كما أنها تتحدث عن (بولس) بصيغة الغائب ، فهو شاب يرضى بالقتل ويُسَرُّ به .

* لا نسمع عن ذكر (شاول) إلا فى بداية الأصحاح التاسع .

مما يكاد يقطع بأن كاتب رسالة الأعمال ليس معروفاً فى الأوساط المسيحية الأولى ، ولا نَدْرى السِّرَّ فى أن كل كُتّاب الأناجيل أعلنوا عن أنفسهم ، كما أن كُتّاب الرسائل والرُّؤى أعلنوا عن شخصيتهم إلا فى رسالة الأعمال .

وفى رسالة أعمال الرسل لا يتضح لنا شيء عن الخطيئة ، وعند تصفحنا للرسائل وجدنا حديثاً شاملاً عن الخطيئة فى رسالة بولس إلى أهل رومية (الأصحاح ٤ : ٧) .

وأول ما يلفت النظر عن حديث الخطيئة هنا أنه مخالفٌ لنظرة الأناجيل التى ذكرنا أمثلة لها ، ذلك أنه فى كل هذه الأصحاحات التى أشرنا إليها تبدأ من افتراض لا يستند إلى دليل من العقل أو النقل ، فليس هناك نص واحد فى الأناجيل يؤيد ما جاء فى مقولة هذه الرسالة .

وقد يَرِدُ علينا بأن هذه الرسالة وحدها تكفى ولا داعى مطلقاً لنص آخر ، وهذا الرد وإن كان يبدو مقبولاً من وجهة نظر مسيحية إلا أنه لا يمكن أن يُقبل منطقياً ، وذلك أنَّ أية رسالة وَحْدَة واحدة ، ولا يمكن أن تظهر فكرةٌ ما فى سياق الكتاب دون أن يكون السياق مؤيداً لها ودالاً عليها ، ومصرحاً بها فى أكثر من مكان .. فالإنجيل بعهديه القديم والجديد يناهز الألف والخمسمائة صفحة أو يزيد .. ومع ذلك فالحديث عن الخطيئة فى الرسالة التى أشرنا إليها تبدو نشازاً لا يتسق مع كافة أجزاء الكتاب . أضف إلى ذلك أن الكتابة عن الخطيئة فى الرسالة أقرب إلى الفلسفة . والجدل الفلسفى منها إلى الكتابة الروحية .

وأيضاً نجد – عند الموازنة – الاختلاف البيّن فى تناول الإنجيل لمسألة الخطيئة عنها فى تناول الرسالة . فالطريقة مختلفة بل تكاد تكون متناقضة .

* ففى الوقت الذى تتحدث فيه الأناجيل عن الخطايا التى تكون فى سلوك الناس وأعمالهم – والتى هى مناط الجزاء لأنها من كسبهم ، وهم مسئولون عنها – إذا

بالرسائل تتحدث عن خطيئة لا دخل للناس فيها خطيئة أبدية .. انتشرت فى الناس بسبب الخطيئة الأولى ، ثم يبنى بولس على ذلك آراءه فى الصَّلب والتكفير .. وكلها أمور لا تخص البشر فى شيء ، لأنهم لم يرتكبوا الخطيئة التى دخل الموت عليهم بسببها .. ولايدرون كيف خلّصوا بالصَّلب من هذه الخطيئة .

ولنترك التعليق حتى نتناول نظرة هذه الرسالة « رسالة بولس إلى أهل رومية » إلى الخطيئة .

* فى الأصحاح الأول يُعلن أن الشر انتشر بين الناس : « لأنهم لما عرفوا الله لم يُمجّدوه أو يشكروه كإله بل حمقوا فى أفكارهم وأظلم قلبهم الغبيّ ، وبينما هم يزعمون أنهم حكماء صاروا جهلاء ، وأبدلوا مجد الله الذى لا يفنى بشبه صورة الإنسان الذى يفنى والطيور والدواب والزحّافات . لذلك أسلمهم الله أيضاً فى شهوات قلوبهم إلى النجاسة لإهانة أجسادهم بين ذواتهم ... وكما لم يستحسنوا أن يبقوا الله فى معرفتهم أسلمهم الله إلى ذهن مرفوض ليفعلوا ما لا يليق ... (وعدّد بعض الخطايا البشرية) ... الذين إذ عرفوا حكم الله أن الذين يعملون مثل هذه يستوجبون الموت، لا يفعلونها...»[1]

ونود أن نشير إلى بعض الملاحظات أمام القارئ قبل أن نمضى فى استعراض باقى الإصحاحات :

١ إن الأصحاح لا يشير من بعيد أو قريب إلى تلك الخطيئة الأبدية بل يشير إلى خطأ بشرىّ استشرى فى أوقات لاحقة عندما عبد الناس الأصنام وفعلوا الفاحشة، وهنا لا نجد تلك الخطيئة الأولى التى شاع الحديث عنها .

٢ - يشير الأصحاح إلى جزاء مثل هذه الخطايا وهو الموت، وهذا الجزاء غير وارد عن مثل هذه الخطايا ، وهذه الإشارة تعنى أن الموت ليس جزاء الخطيئة بصفة عامة أو الخطيئة الأولى بصفة خاصة ، لأن التعبير هنا أقرب إلى التصوير والخيال منه إلى الحقيقة والواقع ، ومفاد هذا أن ما جاء عن الموت الأبدىّ أريد به التخويف والإنذار لا أكثر .

* وفى الأصحاح الثانى نجد الحديث عن التوبة : « أم تستهين بغنى لطفه وإمهاله

---

(١) ندعو القارئ الكريم أن يقرأ الإصحاح الأول كاملاً حتى يستطيع أن يصل إلى ما وصلنا إليه بنفسه .. وربما إلى أكثر مما وصلنا إليه .

وطول أناته غير عالم أن لطف الله إنما يقتادك إلى التوبة ، ولكنك من أجل قساوتك وقلبك غير التائب تدخر لنفسك غضباً فى يوم الغضب ... » .

ثم يتحدث الإصحاح عن أصحاب الناموس : « لأن ليس الذين يسمعون الناموس هم أبرار عند الله ، بل الذين يعملون بالناموس هم يبررون لأن الأمم الذين ليس عندهم الناموس متى فعلوا بالطبيعة ما هو فى الناموس فهؤلاء إذ ليس لهم الناموس هم ناموس لأنفسهم الذين يظهرون عمل الناموس مكتوباً فى قلوبهم شاهداً أيضاً ضميرهم وأفكارهم فيما بينها مشتكية أو محتجّة فى اليوم الذى فيه يدين الله سرائر الناس حسب إنجيلى بيسوع المسيح » .

وملاحظاتنا على هذه الفقرة

١ – يظهر فى البداية مدى الدعوة إلى التوبة .

٢ – عقب ذلك مباشرة بأن القلب غير مستعد لهذه التوبة لقساوته ، ولهذا فهو يستجلب الغضب .

وإن كان الحديث فى هاتين النقطتين عن شخص بعينه أو عدة أشخاص فلا تناقض ، إذ يمكن أن نحكم على شخص أو أشخاص بأنهم قساة القلوب ، اعتماداً على سلوكهم وأعمالهم ، أما إذا كان الحديث يتناول النوع الإنسانى كله فيكون التناقض بين العبارتين واضحاً ، فمما لاشك فيه أن أناساً استجابوا لله تعالى وأقلعوا عن ذنوبهم وتابوا ، فتعميم الحكم بقسوة القلوب واستجلاب الغضب لا يصح بحال .

٣ – فى عبارات الإصحاح بعد ذلك محاولة للتهوين من شأن الناموس (الوحى والرسالة والشريعة) ، فقد يتساوى الذين لا ناموس لهم مع أصحاب الناموس ، إذ يمكن أن يكونوا كذلك حين يصلون بعقولهم أو قلوبهم إلى القانون ، الذى يشابه الناموس .

وهذه قضية فلسفية ناقشها ابن طفيل فى قصة « حى بن يقظان » [1] فهل يمكن أن يستغنى البشر عن الرسالة الإلهية ؟ وهل يمكن أن يصل بعقله إلى الإيمان الحق ، هذه القضية قديمة جداً ، ولعل كاتب الرسالة التى ناقشها قد تأثر فيها بفلسفة أفلوطين أو غيره من الفلاسفة .

(١) وكذلك ابن سينا .

٤ – تأمل قول بولس : « هم ناموسٌ لأنفسهم » وما فيه من تحلل من قيم الشريعة .

٥ – « يدين الله سرائر الناس حسب إنجيلى » .

وهنا تساؤل مُحيّر .. إذ كيف يُدَانُ الناس حسب إنجيل بولس ؟ ولِمَ حاول أن يَشُدَّ الناس إليه ؟ وكيف قطع الطريق أمام غيره .. بل ولماذا حاول بولس التحديد ؟

إن له دلالة قوية ، ربما يدلُّ تحديد بولس على مدى الصراع الدائر فى العصور الأولى، وبولس لم يُشاهد المسيح عليه السلام ، وكان الرسل متخوفين منه لولا برنابا ، بل إن برنابا نفسه انشق على بولس وخرج عليه وهو الذى سبق أن قدمه للتلاميذ [١] ، فما دلالة كل ذلك ؟

إنه يدل على مدى ما يتعرض له بولس من صراع غير متكافىء ، فكان لابد أن يربط أهل رومية بإنجيله لعلهم يكونون سنداً له فى صراعه ، ولهذا كله وغيره ربط بولس الدينونة بإنجيله دون سواه .

٦ – وفى نهاية الأصحاح نكتشف حقيقة خطيرة تُؤكد ما توصلنا إليه فى بداية ملاحظاتنا من محاولات للتهوين من شأن الناموس « لأن اليهودى فى الظاهر ليس هو يهودياً ، ولا الختان الذى فى الظاهر فى اللحم ختاناً ، بل اليهودى فى الخفاء هو اليهودى . وختان القلب بالروح لا بالكتاب هو الختان الذى مدحه ليس من الناس بل من الله » .

ويُحاول بولس فى كل ذلك أن يَجعل من شعائر الناموس عبثاً ، ويُركز على الباطن .. مما يُوحى بأن الشعائر لا يمكن أن تجتمع مع الإيمان القلبى ، وإلا فكيف يصرف بولس جُلَّ همه إلى الحديث عن ذلك ، وهو ما بدأ به الأصحاح الثالث أيضاً ؟

* وفى الأصحاح الثالث :

« فإنه إن كان صدق الله قد ازداد بكذبى لمجده فلماذا أُدانُ أنا بَعْدُ كخاطىء ؟ » .

« الجميع زاغوا وفسدوا معاً .. ليس مَنْ يعمل صلاحاً ليس ولا واحد ... وفمهم مملوء لعنةً ومرارةً ... لأنه بأعمال الناموس كلُّ ذى جسد لا يتبرّر أمامه لأن بالناموس معرفة الخطية » .

(١) راجع : الاختلاف والاتفاق بين إنجيل برنابا والأناجيل الأربعة ، نشر دار البشير ـ القاهرة .

« وأما الآن فقد ظهر برّ الله بدون الناموس مشهوداً له من الناموس والأنبياء ... متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذى بيسوع المسيح . الذى قدّمه الله كفّارة بالإيمان بدمه لإظهار برّه من أجل الصفح عن الخطايا السالفة بإمهال الله » .

وفى هذه العبارات أكثر من ملاحظة هامة ..

١ – الكذب ليزداد صدق الله ..ولا ندرى السرّ الذى يجعل صدق الله يزداد بكذب الإنسان ؟ .. ولعل بولس هنا يأخذ لنفسه الإذن بأن يقول ما شاء ، مهما كان كذباً لأنه يزيد بكذبه صدق الله فلا حرج عليه .

٢ – اتّهام الجميع بأنهم زاغوا وفسدوا .. ليس مَنْ يعمل صلاحاً ليس ولا واحد .

٣ – إن الناموس لا يضمن طهارة أحد .. لأن الناموس هو الذى كشف الخطايا .. ولا شأن له بعلاجها .

٤ – ظهر برُّ الله بدون الناموس فلم يَعُدْ للناموس فائدة وهذا ليس عجيباً ، لأن الناموس نفسه اعترف بذلك .

٥ قدّم الدم كفّارةً للخطايا السالفة بإمهال الله ، ولا ندرى هل تكفير لأهل هذا الزمان الذى قدّم الدم فى وقتهم ؟ أم للسابقين .. أم للمتأخرين ؟ وإن كانت للمتأخرين فما هى الخطايا السالفة بالنسبة لهم وهم لم يولدوا بعد ؟

ولقد استعرضتُ هذه النصوص لأدلل على فكرة وضّحتها فى حديثى وهى أن التصور المسيحى للخطيئة [1] والخلاص منها لا يستند على أساس واضح من النصوص القاطعة خصوصاً فى أمر كهذا ، نظراً لأن المسيحية قد اختلفت مع غيرها من الديانات السماوية فى هذا التصور ، وكان لا بد أن يستند هذا إلى نصوص قوية .

أما والأمر كما رأينا فإن الخطيئة وما زعموا حولها من الموت الأبدى ليس إلا تصورات نابعة من ضمائر بعض الناس أو قُلْ إنها نابعة من أوهامهم .. والله أعلم .

ثالثاً : الخطيئة فى تصور إنجيل برنابا

لعل من المفيد أن نُشير إلى مفهوم الخطيئة فى إنجيل برنابا ، وذلك لتميزه الواضح عن باقى الأناجيل ، وهذا الإنجيل قد كتبه صاحبه للرد على المنحرفين عن الطريق القويم

(١) نقصد الخطيئة بمعناها الخاص فى المسيحية والتى زعموا أنّ دم المسيح كان فداءً وخلاصاً منها .

للمسيح عليه السلام .. ولهذا فلا عجب أن يأتي مفهوم الخطيئة فيه متسقاً مع مفهوم الخطيئة في الرسالات بصفة عامة .

ولهذا فإنه قد يكون مرفوضاً من جانب المسيحيين ، ولكنه مقبول من وجهة نظر الرسالات السماوية عموماً . ومتسقاً مع منطق المسئولية الفردية ، وفكرة الثواب والعقاب . وهي المبدأ الأخلاقي الذي تقوم عليه الديانات جميعها .. فليس من السهل – والأمر كذلك – أن نتجاوز إنجيل برنابا دون الإشارة إلى مفهوم الخطيئة فيه .

* جاء في الفصل الثالث والثلاثين : « ما أعظم هذه الخطيئة .. قال الله مخاطباً إسرائيل : لا تصنع لكَ تمثالاً مما في السماء ولا مما تحت السماء .. إني أنا إلهك قوي وغيور ينتقم لهذه الخطيئة من الآباء وأبنائهم .. حتى الجيل الرابع » .

فالخطيئة الكبرى هي اتخاذ آلهة من دون الله .

* ويترتب على هذا القول قول آخر : « ليكن ملعوناً كُلُّ مَنْ يدرج في أقوالي أني ابن الله [(1)] ، فسقط التلاميذ عند هذه الكلمات كأموات .. فأنهضهم يسوع قائلاً : لنخف الله الآن إذا أردنا أنْ لا نُراع في ذلك اليوم » يقصد يوم القيامة بأهواله .

* وعن مغفرة الخطايا : « لا تخف أيها الأخ لأن خطاياك قد غُفرتْ لك » ، فاستاء كل أحد لسماع هذا وقالوا : « مَنْ هذا الذي يغفر الخطايا » فقال حينئذ يسوع: « لعمر الله إني لست بقادر على غفران الخطايا ولا أحد آخر .. ولكن الله وحده يغفر ، ولكنني كخادم لله أقدر أن أتوسل إليه لأجل خطايا الآخرين » [(2)] .

* ويعاود إنجيل برنابا الحديث عن فتنة البنوَّة فأخبر المسيح « ولكن عندما يأخذني الله من العالم سيثير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونة بأن يحمل عادم التقوى على الاعتقاد بأني الله وابن الله ، فيتنجس بسبب هذا كلامي وتعليمي حتى لا يكاد يبقى ثلاثون مؤمناً ... » .

* ويُعلِّمهم المسيح طريق التوبة فيقول المصلي في صلاته : « انظر يا رب إلى الأثيم الذي أغضبك بدون أدنى سبب ، في الوقت الذي كان يجب عليه أن يخدمك فيه ...

(1) أشار القرآن الكريم إلى إحساس عيسى عليه السلام بكفرهم فقال تعالى : ﴿ فلمَّا أحسَّ عيسَى منهم الكُفْرَ قَالَ مَنْ أنصارى إلى الله ...﴾ (آل عمران : ٥٢) .

(2) هذا أقرب إلى مفهوم الشفاعة للعصاة .

فإذا جرى الخاطئ على هذا الأسلوب وجد أن رحمة الله تزيد على نسبة العدل الذى يطلبه » (فصل : ١٠٢)

* وفى (الفصل : ١٠٣) يستمر الحديث الشيّق عن التوبة « إن بكاء الخاطئ يجب أن يكون كبكاء أب على ابن مشرف على الموت ، ما أعظم جنون الإنسان الذى يبكى على الجسد الذى فارقته النفس ولا يبكى على النفس التى فارقتها رحمة الله بسبب الخطيئة [١] ، فلو قدر النوتى إذا كسرت العاصفة سفينته على أن يسترد بالبكاء ما خسر فماذا يفعل ؟ .... » .

ولا نطيل فى استعراض عبارات الخطيئة وعلاجها فلن نظفر فى إنجيل برنابا إلا بهذا الخط الواضح ، وليرجع إليه من أراد المزيد .. والله أعلم .

من تعليقات الباحثين حول الخطيئة فى المسيحية

تثور تساؤلات كثيرة من الباحثين حول الخطيئة فى المفهوم المسيحى – وكيفية الخلاص منها ، ونسوق هنا بعض هذه التساؤلات ؛ والهدف لفت النظر إلى الصواب ، والتنبيه إلى الصراط المستقيم حتى يُعمل كل ذى عقل عقله ، ويختار لنفسه .

يقول أحد الباحثين [٢] : ولست أدرى ما الذى حدا بالمسيحيين أن يُصوروا نبيهم ، أو هذا التصوير البشع وإن أى مفكر لتخطر بنفسه الأسئلة الآتية :

١ – ادّعى المسيحيون أن صَلْبَ المسيح كان لتحقيق العدل والرحمة ، وأى عدل وأى رحمة فى تعذيب غير مذنب وصَلْبه ؟ قد يقولون إنه هو الذى قبل ذلك [٣] ، ونقول لهم : إن مَنْ يقطع يده ، أو يعذب بدنه ، أو ينتحر ، مذنب ولو كان يريد ذلك !!

٢ – إذا كان المسيح ابن الله فأين كانت عاطفة الأبوة ؟ وأين كانت الرحمة حينما كان الابن الوحيد يُلاقى دون ذنب ألوان التعذيب والسخرية ثم الصلب مع دق المسامير فى يديه ؟

---

(١) مفهوم الخطيئة هنا هو المفهوم العام لها بمعنى الخطأ فى السلوك وليست بالمفهوم المسيحىّ .

(٢) د. أحمد شلبى فى كتاب : المسيحية ، من سلسلة مقارنة الأديان ، ص ١٥٨ وما بعدها .

(٣) هذا زعم لا تؤيده نصوص الأناجيل ، وهى تجمع على أنه كان مكتئباً حزيناً يتضرع إلى الله تعالى أن يعبر عنه هذه اللحظات ويخلصه من كيد الكائدين .

٣ - ما هى صورة المسيحيين عن الله (جلّ فى سماه) الذى لا يرضى إلا بأن ينزلَ العذاب المهين بالناس ؟ والعهد فى الله الذى يسمّونه الآب ويطلقون عليه (الله رحمةٌ) أن يكون واسع المغفرة كثير الرحمات ؟

٤ - مَنْ هذا الذى قيَّد الله (جل جلاله) وجعل عليه أن يلزم العدل وأن يلزم الرحمة وأن يبحث عن طريق للتوفيق بينهما ؟

٥ - ويدَّعى المسيحيون أن ذرية آدم لزمهم العقاب بسبب خطيئة أبيهم وفى أى شرع يلتزم الأحفاد بأخطاء الأجداد ؟ وبخاصة أن الكتاب المقدس ينص على أنه لا يُقتَل الآباء عن الأولاد ولا يُقتَل الأولاد عن الآباء . كل إنسان بخطيئته يُقتَل .

(تثنية ٢٤ : ١٦)

٦ - وإذا كان صَلْبُ المسيح عملاً تمثيلياً على هذا الوضع فلماذا يكره المسيحيون اليهود ويرونهم آثمين معتدين على السيد المسيح ؟ .

٧ - وهل كان نزول ابن الله وصلبه للتكفير عن خطيئة البشر ضرورياً ؟؟ وكانت هناك وسائل أخرى من الممكن أن يغفر الله بها خطيئة البشر ؟

* والجواب عن ذلك يُقدمه كاتبٌ مسيحى هو (القس بولس سباط) بقوله :

لم يكن تجسد الكلمة ضرورياً لإنقاذ البشر ، ولا يتصور ذلك مع القدرة الإلهية الفائقة الطبيعية .. ثم يسترسل الكاتب مبيناً السبب فيقول :

« إن الله على وفرة ما له من الذرائع إلى فداء النوع البشرى وإنقاذه من الهلاك الذى نتج من الخطيئة ومعصية أمره الإلهى قد شاء سبحانه أن يكون الفداء بأعز ما لديه لما فيه من القوة على تحقيق الغرض وبلوغه سريعاً » .

ونصرخ فى وجه هذا الكاتب أنه ليس من الحكمة فى أى شىء أن نفتدى بدينار ما نستطيع أن نفتديه بفلس ، تعالى الله عن ذلك .

وإجابة أخرى عن هذا السؤال نقتبسها من كاتب مسيحى آخر هو الأب (بولس إلياس) يقول : « مما لاريب فيه أن المسيح كان باستطاعته أن يفتدى البشر ، ويصالحهم مع أبيه بكلمة واحدة ، أو بفعل سجود بسيط يؤديه باسم البشرية جمعاء لأبيه السماوى ، لكنه أبى إلا أن يتألم ليس لأنه مريض يتعشق الألم ، ولا لأن أباه ظالم يطرب لمرأى الدماء ، وأية دماء ؟ دماء ابنه الوحيد ، وما كان الله بسفّاح ظلوم لكن الله الابن شاء مع

الله الأب أن يُعطى الناس أمثولة خالدة من المحبة تبقى على الدهر وتحركهم على الندامة على ما اقترفوه من آثام وتحملهم على مبادلة الله المحبة » .

ومرة أخرى نصرخ مؤكدين أنه صوَّر الداء أدق تصوير عندما تكلَّم عن الدماء والقسوة ، ولكنه عندما بدأ يجيب ويصف الدواء تعثر وكبا ، ولم يقل إلا عبارات جوفاء لا تحمل أى معنى [(١)] .

٨ – ونعود إلى القس بولس سباط لنسأل كما سأل : إذا كانت الكلمة قد تجسَّدت لمحو الخطيئة الأصلية فما العمل فى الخطايا التى تحدث بعد ذلك ؟ ويجيب الكاتب بما يلى بالحرف الواحد :

إذا عاد الناس إلى اجتراح الخطايا فالذنب ذنبهم لأنهم آنسوا النور وعشَوْا عنه مؤثرين الظلمة بإرادتهم .

ومعنى ذلك أن خطيئة واحدة محيت ، وأن ملايين الخطايا سواها بقيت ووجدَت بعد ذلك ، وسيحاسب الناس على ما اقترفوه . وبعض ما اقترفوه أقسى من عصيان آدم ؛ لقد أنكر بعض الناس وجود الله وهاجمه آخرون وسخروا بجنته وناره فلماذا كانت مظاهرة التجسد لخطيئة واحدة وتركت خطايا لا تعدُّ ؟

٩ – أين كان عدل الله ورحمته منذ حادثة آدم حتى صُلِب المسيح ؟ ومعنى هذا أن الله ظلَّ (تعالى عن ذلك) حائراً بين العدل والرحمة آلاف السنين حتى قبل المسيح منذ حوالى ألفى عام أن يُصْلَب للتكفير عن خطيئة آدم .

١٠ – ويلزم فى جميع الشرائع أن تتناسب العقوبة الذنب فهل يتم التوازن بين صلب المسيح على هذا النحو وبين الخطيئة التى ارتكبها آدم ؟

١١ – هذا إلى أن خطيئة آدم التى لم تزد عن أن تكون أكلاً من شـجرة نُهِيَ عنها وقد عاقبه الله عليها بإخراجه من الجنة ولاشك أنه عقاب كاف ، فالحرمان من الجنة الفينانة ، والخروج إلى الكدح . والنصب عقاب ليس بالهيِّن ، وهذا العقـاب قد اختاره الله بنفسه ، وكان يستطيع أن يفعل بآدم أكثر من ذلك ، ولكنه اكتفى بذلك ، فكيف يُستساغ أن يظل مُضمراً السوء غاضباً آلاف السنين حتى وقت صَلْب عيسى ؟

---

(١) أقول : ولا دلالة على ما ذهب إليه من نص شرعى أو منطق عقلى ، ولو صحَّ ما قاله ما سكت الإنجيل عن ذلك .

١٢- وقد مرّت بالبشر من عهد آدم إلى عهد عيسى أحداثٌ وأحداث ، وهلك كثيرون من الطغاة ، وبخاصة في عهد نوح حيث لم ينج إلا مَنْ آمن بنوح واتّبعه وركب معه السفينة ، فهؤلاء هم الذين رضى الله عنهم ، فكيف بعد ذلك تبقى ضغينةٌ وكراهية تحتاجان لأن يُضحى عيسى بنفسه فداءً للبشرية ؟

١٣- والكاتب المسيحى الذى أسلم (عبد الأحد داود) ينتقد قصة التكفير هذه انتقاداً عقلياً سليماً فيقول :

إنَّ من العجيب أن يعتقد المسيحيون أن هذا السر اللاهوتى وهو خطيئة آدم ، وغضبة الله علىَ الجنس البشرى بسببها ظل مكتوماً عن كل الأنبياء السابقين ، ولم تكتشفه إلا الكنيسة بعد حادثة الصَّلْب .

١٤- ويقول هذا الكاتب : إن مما حمله على ترك المسيحية هو هذه المسألة وظهور بطلانها لأن الكنيسة أمرته بأوامر لم يستسغها عقله وهى :

(أ) نوع البشر مذنب بصورة قطعية ويستحق الهلاك الأبدى .

(ب) الله لا يُخلّص أحداً من هؤلاء المذنبين من النار الأبدّية المستحقة عليهم بدون شفيع .

(جـ) والشفيع لابد أن يكون إلهاً تاماً وبشراً تاماً ، ويدخل هذا الكاتب فى نقاش طويل مع المسيحيين بسبب هذه الأوامر ؛ فهم يرون أن الشفيع لابد أن يكون مطهراً من خطيئة آدم ويرون أنه لذلك وُلد عيسى من غير أب لينجو من انحدار الخطيئة إليه من أبيه ويسألهم الكاتب : ألم يأخذ عيسى نصيباً من الخطيئة عن طريق أمه مريم ؟ ويجيب هؤلاء بأن الله طهّر مريم من الخطيئة قبل أن يدخل الله الابن رحمها .

ويعود الكاتب فيسأل إذا كان الله يستطيع هكذا فى سهولة ويسر أن يُطهّر بعض خلقه فلماذا لم يطهّر خلقه من الخطيئة كذلك بمثل هذه السهولة وذلك اليسر ؟ بدون إنزال ابنه وبدون تمثيلية الولادة والصَّلْب ؟

ونضيف إلى نقاش عبد الأحد داود أنَّ قولهم بضرورة أنْ يكون الشفيع مُطهراً من خطيئة آدم (مما استلزم أن يُولد عيسى من غير أب وأن يطهّر اللّهُ مريم قبل دخول عيسى رحمها) يحتاج إلى طريق طويل معقد ، وكان أيسر منه أن ينزل ابن الله مباشرة فى مظهر الإنسان دون أن يمرّ بطريق الرحم والولادة .

ويبقى فى هذا الموضوع أن نسأل أسئلة أخيرة هى :

* هل كان الأنبياء جميعاً مدنّسين خطاة بسبب خطيئة أبيهم آدم ؟
* وهل كان الله غاضباً عليهم أيضاً ؟
* وكيف اختارهم مع ذلك كهداة للبشر ؟

ونسوق نموذجاً آخر [(١)] لمناقشة فكرة الخطيئة فى المسيحية وهى أن أساس عقيدة صلب الإله فى المسيحية هو الرغبة فى حل مشكلة التعارض بين صفتى العدل والرحمة، ولم يجد الله – سبحانه وتعالى – حلاً لهذه المشكلة إلا أن ينزل من السماء ويقدم نفسه للإنسان كفارة عن خطيئة آدم ، وذلك بأن يقتله الإنسان على الصليب ، أى أن الله ينتحر بأيدى الإنسان الخاطىء ويعفيه الله بذلك من إثم الخطيئة الأولى ، ولنا الملاحظات الآتية فى مناقشة هذه العقيدة :

أولاً : أعطى الله تعالى الكثير من النعم للإنسان ، وقدّر لكل إنسان رزقه ونصيبه من هذه النعم فى غير عدل وغير ظلم ، إنّ الله يعطى لمَن يشاء ما يشاء كيف يشاء بدون عدل وبدون ظلم [(٢)] . وأسماء الله الحسنى ليس بها صفة عادل [(٣)] ، وكذلك فى الإنجيل ذكر السيد المسيح مثلاً من أمثاله فى إنجيل متى يوضح فيه هذا المعنى فى الأصحاح العشرين وفيه صاحب كرْم استأجر فَعَلَة يوماً ، وأعطى لبعضهم أكثر مما يستحقون من الأجرة ، فاحتج الآخرون فقال لهم : « أو ما يحل لى أن أفعل ما أريد بمالى » (٢٠ – ١٤) ، فلم يعدل صاحب الكرْم بين الفَعَلة ولم يظلم أحداً منهم فى نفس الوقت . اهـ بتصرف .

ثانياً : قال مجمع الإيمان ما معناه : إن الله لا يقدر أن يغفر ؛ لأنّ المغفرة تتعارض مع العدل ، فالعدل يقتضى معاقبة المخطىء والمغفرة معناها عدم معاقبة المخطىء ، وبذلك يقف العدل فى طريق المغفرة ويلغى قدرة الله على المغفرة ، وهذا لا تقبله جميع الأديان .

---

(١) ملكوت الله فى النصرانية واليهودية والإسلام ، تأليف عبد المجيد الجندى ، ص ١٢٣ وما بعدها .

(٢) يسوق الكاتب مثالاً – (ولله المثل الأعلى) – بالغنى الذى أعطى أحد الفقراء عشرة جنيهات وأعطى آخر جنيهاً وثالثاً خمسة جنيهات ... إلخ ، فهو غير عادل إذ لم يوزعها بالعدل وهو غير ظالم إذ لم يمنع عن أحد حقه . فالنعم من الله تعالى هبة ليس فيها عدل ولا ظلم : ص ١٣٨ .

(٣) أقول : من أسمائه الحسنى « العدل » .

ثالثاً : الطريقة التى تمّ بها الفداء المزعوم تتنافى مع أبسط قواعد العدل والرحمة ، فقد اعتبروا عصيان آدم وأكْله من الشجرة المحرمة جريمة فكان يجب – إذا كان لا مفر من العقوبة – أن يُعاقب آدم نفسه لا ذريته التى لا ذنب لها ، وعدم تحميل الأبناء ذنوب الآباء قاعدة موجودة فى اليهودية والنصرانية والإسلام .

وحتى لو فرضنا أنَّ على أبناء آدم أن يُعاقبوا على جريمة أكل آدم من الشجرة المحرمة لا يكون ذلك بأن نحملهم يرتكبون جريمة أكبر وأفظع ، وهى قتل الإله أو قتل ابن الإله أو قتل إنسان لم يرتكب أى ذنب فى حياته .

ولعلك أدركت من سوق هذه الملاحظات – وغيرها كثير – أن محاولة تبرير الصَّلب بأنه حلٌ للتعارض بين العدل والرحمة فى ذات الله تعالى . محاولة للتدليس على العامة حيث تلبس الحق بالباطل .

فما هذا الإله الذى تتعارض صفاته بعضها مع بعض ؟ وهل يصلح مثل هذا الكائن أن يكون إلهاً ؟ ولو صحَّ أن الصلب محاولة لإزالة التناقض فى صفات الإله المزعوم لوجب أن يحل التناقض بما لا يخلق تعارضاً آخر أشد منه ، فليس من العدل أن يُعاقب غير المذنب ، وليس من العدل أن تفوق العقوبة الذنب ، وليس من العدل – كذلك – أن يُصلب واحد من أجل خطيئة واحدة .. ثم تترك . بقية الخطايا – رغم بشاعتها – دون أن يُصلب آخرون لأجلها .. نعم كل ذلك ليس من العدل وكل ذلك أيضاً ليس من الرحمة فى شىء .

ويظهر لك كذلك أن ما ساقه النصارى تبريراً لرواية الصَّلب لا يعدو مجرد افتراضات تُرضى قائليها وتزين لهم سُبل الشّيطان ، وهى لا تستند لدليل عقلى أو نقلى .

﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ (النجم ٢٣)

مفهوم الخلاص الحقيقى فى المسيحية

عرضنا لوجهة نظر المسيحيين فى الخطيئة والخلاص ، ورأينا كيف خانهم التوفيق فى القول بالصَّلب والتكفير عن الخطيئة ، ورأينا كيف أنَّ هذا القول يتصادم مع العقل والإيمان ، وقلنا إنه باستعراضنا للأناجيل لم نعثر على عبارة صريحة الدلالة توضح أنَّ هناك خطيئة عامة لا يُكفرها إلا الدم ، وكل ما ورد فى هذا الموضوع لا يُقطع فيه برأى ،

وإنما هو مشار للتأويل ، وربما يكون حمله على غير ما أراده أَوْلى من حمله على ما حملوه [(١)] .

والذى يستعرض عبارات الإنجيل يستطيع أن يجد الطريق إلى الخلاص الحقيقىّ بعيداً عن التجسد والصَّلب ، إذ لا داعى للقول بهما فقد ضمن الإنجيل الخلاص بطريق يتفق مع كافة الشرائع السماوية ، ومع المنطق الذى جرت به الرسالات ، ويتفق مع العقل البشرى ، فلا يقدّم له طلاسم وألغازاً ، ولا يطلب من الإنسان أن يسير معصوب العينين . ومن الأمثلة التى ذُكِرتْ فى العهد الجديد :

* بينما كان المسيح يسير خارجاً ، إذا واحد تقدَّم وقال له : أيها المعلم الصالح أى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الأبديَّة . فقال له : لماذا تدعونى صالحاً ، ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله ، ولكن إنْ أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا ، قال له : أية وصايا ؟ فقال يسوع : لا تقتلْ ، لا تزن ، لا تسرق ، لا تشهد بالزور ، أكرمْ أباك وأمك، وأحب قريبك كنفسك . قال له الشاب : هذه كلها حفظتها منذ حداثتى فماذا يعوزنى بعد ذلك ؟ قال له يسوع : إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعالى اتبعنى ... » (متى ١٩ : ١٦ - ٢١)

فلم يطلب المسيح عليه السلام من سائله إلا أنْ يؤمن بالله الواحد ، وهو الصالح ، كما طلب منه أن يحفظ الشريعة والوصايا ويتخلص من أعراض الحياة والتعلق بها ، وأن يتبع الرسالة والرسول .

* وفى يوم القيامة (يوم الدينونة) سيكون الخلاص بالعمل الصالح لا بالصلب ، وفلسفاته التى تناقض العقل ، وهذا كلام تنطق به عبارات الإنجيل : « يقول الملك للذين عن يمينه : تعالوا لترثوا الملكوت المعدّ لكم منذ تأسيس العالم ؛ لأنى جُعت فأطعمتمونى، كنتُ غريباً فآويتمونى ، عرياناً فكسوتمونى ، مريضاً فزرتمونى ، محبوساً فأتيتم إلىَّ .

فيجيبه الأبرار حينئذ قائلين : يا ربُّ متى رأيناك جائعاً فأطعمناك ، أو عطشاناً فسقيناك، ومتى رأيناك غريباً فأويناك ، أو عرياناً فكسوناك ، ومتى رأيناك مريضاً أو محبوساً فأتينا إليك. فيجيب الملك ويقول لهم : الحقَّ أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد أخوتى الأصاغر فبى

---

(١) انظر فى ذلك تفصيلاً : المسيح فى مصادر العقائد المسيحية ، مهندس أحمد عبد الوهاب ، ص ٢٧٦ وما بعدها .

فعلتم ، ثم يقول أيضاً للذين عن اليسار : اذهبوا عنى يا ملاعين إلى النار الأبدية المُعدَّة لإبليس وملائكته ، لأنى جُعتُ فلم تطعمونى ... حينئذ يجيبونه هم أيضاً قائلين : يا ربُّ متى رأيناك جائعاً .. فيجيبهم قائلاً : الحقَّ أقول لكم بما أنكم لم تفعلوه بأحد هؤلاء الأصاغر فبى لم تفعلوا ، فيمضى هؤلاء إلى عذاب أبدى ، والأبرار إلى حياة أبديّة » .
(متى ٢٥ : ٣٤ – ٤٦)

وهكذا نرى أن الإنسان يُدانُ بعمله ، ويتحمل مسئوليته ومدى اتباعه لتعاليم الله سبحانه وتعالى .. ولا دخل للصَّلْب أو الفداء بذلك .

وقد جاء فى سفر حزقيال : « الابن لا يحمل من إثم الأب ، والأب لا يحمل من إثم الابن .. بر البار عليه يكون ، وشر الشرير عليه يكون » (١٨ : ٢٠)

« أنت تؤمن أن الله واحد .. حسناً تفعل .. والشياطين يؤمنون ويقشعرون ، ولكن هل تريد أن تعلم أيها الإنسان الباطل أن الإيمان بدون أعمال ميت .. بالأعمال يتبرر الإنسان لا بالإيمان وحده » (٢ : ١٩ – ٢٤)

إن الديانة الطاهرة النقية عند الله هى هذه :

افتقاد اليتامى والأرامل فى ضيقتهم وحفظ الإنسان نفسه بلا دنس من العالم .
(٢ : ٢٧)

* وتأمل معى أيها القارئ حديث الأناجيل عن الخطايا التى تُغْفَر ، وعن الخطيئة التى لن تغفر . فى متى (١٢ : ٣١ – ٣٧) : « لذلك أقول لكم – والكلام للمسيح – كل خطية وتجديف يغفر للناس ، ومن قال كلمة على ابن الإنسان يُغفر له ، وأما مَنْ قال على الروح القدس فلن يُغفَر له لا فى هذا العالم ولا فى الآتى ، اجعلوا الشجرة جيدةً وثمرها جيِّداً ، أو اجعلوا الشجرة رديَّة وثمرها ردياً ، لأن من الثمر تُعرَف الشجرة . يا أولاد الأفاعى كيف تقدرون أن تتكلَّموا بالصالحات وأنتم أشرار ؟ أقول لكم إنَّ كلمة بطَّالة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين ، لأنك بكلامك تتبرَّر ، وبكلامك تدان ... » .

وهذا الكلام واضح الدلالة ، ونستطيع أن نستنبط منه ما يأتى :

إنه يُحذرهم أن يُجدِّفوا على الروح القدس ، لأن التجديف عليه لن يُغفر أبداً [1]

---

(١) يذكرنا هذا بقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ (النساء : ٤٨) .

ويوضح مرقس هذه القضية أكثر فيقول : « الحقَّ أقول لكم : إن جميع الخطايا تُغفر لبنى البشر والتجاديف التى يجدفونها، ولكن من جدف على الروح القدس فليس له مغفرة إلى الأبد ، بل هو مستوجب دينونة أبديّة ، لأنهم قالوا إن معه روحاً نجسة ... » [(١)] .

فهنا يضرب لنا مثالاً على نوعية التجديف على الروح القدس كأن يضيفوا الوحى الذى ينـزل على الرسـول إلى الشيطان ، ويجعـلوه عملاً من أعمـال الروح النجـس ، لا الروح القدس ، ولعله هنا جبريل عليه السلام .

ومما يدل على أنَّ المسيح عبدٌ لله ورسولٌ من عنده تعالى أننا نخبرهم أن كل كلمة تـقال على ابن الإنسان تغفـر ، اللهم إلا إذا تطاول الناس على مرتبـة الألوهية والوحى ، (والمسيح هو ابن الإنسان) .

ويحكى لنا لوقا (١٧ : ١ – ٣) كلام المسيح عن الخطيئة والتحذير منها ووجوب العفو عن الإخوة : « وقال لتلاميذه لا يمكن إلا أن تأتى العثرات ، ولكن ويل للذى تأتى بواسطته ، خير له لو طُوِّقَ عُنقُه بحجر رحى وطُرح فى البحر من أن يعثر أحد هؤلاء الصغار . احترزوا لأنفسكم ... » .

فالخطيئة ضرورة .. فطرة رُكِّبت فى طبيعة البشر ، وهو يحذرهم أن يكونوا سبباً فى نشر الرذيلة ثم يطلب المسيح من كل منهم أن يحترس لنفسه ، فالإنسان هو المسئول عما يقترف ، ولن يتحمل أحد شيئاً من أوزار الآخرين [(٢)] .

وهكذا تنجلى بعض جوانب الصورة :

* فالكل مُحاسَبٌ على ما تقترف يداه .
* لن يتحمل أحد وِزْرَ أخيه .
* هناك الخطيئة الكبرى التى لن تُغفر (وهى الشرك بالله) وأما غيرها فيُمكن أن يُغفر ... وفضل الله واسع .

---

(١) والروح النجسة معناها أن نجعل لله شريكاً سبحانه وتعالى عن اتخاذ الشريك والولد .

(٢) ما ورد فى لوقا من كلام المسيح عليه السلام « ويل للذى تأتى بواسطته » يذكرنى بالخبر الذى روى عن رسول الله ﷺ وجاء فيه : « إن الله قدر الخير والشر ولكن طوبى لمن جعل الله الخير على يديه وويل لمن جعل الشر على يديه » .

* كل إنسان بكلامه يتبرر ، وبكلامه يُدانُ .
* تُغفَرُ الخطايا بالعمل الصالح ومساعدة اليتامى والأرامل ، ولا علاقة لكل ذلك بما قيل عن الخطيئة الوبائية التى اجتاحت البشرية ، أو الصَّلْب تكفيراً عن هذه الخطيئة فى غير أوانها .. وبعيداً عن طبيعتها ... والله يقول الحقّ وهو يهدى السبيل .

أين الحقيقة ؟

هل توارث البشر حقاً خطيئة ما بمجرد أن أكل أبوهم آدم من الشجرة ؟

لقد ظهر لنا مما أسلفناه أنه لا أساس للادعاء بخطيئة متوارثة .. والآن وقد طال بنا البحث نقلِّب صفحات العهد القديم الذى يؤمن به القوم لنرى ماذا تقول عباراته ؟

ففى الأصحاحات الأولى من سفر التكوين نجد الحديث عن خلق آدم وحواء ، ونجد أن آدم سمَّاها امرأة لأنها من (المرء) أى من نفسه وتتحدث عبارات الأصحاح الثالث عن خديعة الحية للمرأة : « فقالت المرأة للحية من ثمر شجر الجنة نأكل . وأما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمسَّاه لئلا تموتا ، فقالت الحية للمرأة لن تموتا ، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر » (٢ – ٦)

وفى نفس الأصحاح نقرأ : « وقال الربُّ الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر ، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد » . (٢٢ – ٢٣)

والشجرة التى أكل منها آدم وحواء شجرة معرفة الخير والشر . فهل هذه خطيئة ؟

إننا لا نجد هنا شبهة فى أى خطيئة بل ولا نجد شبهة مخالفة لأى أمر إلهى .. فقد أمر آدم بعدم الأكل من الشجرة .

أولاً : فآدم كان جاهلاً جهلاً فطرياً – حسب رواية العهد القديم – بحيث لم يكن يدرى (هو وحواء) أنهما عريانان ، ولك أن تتخيل المنظر إذا مررت على أية دابة من دواب الأرض ووجدت الذكر والأنثى من هذه الدواب (البهائم) يقفان متجاورين ، وقد ظهرت عوراتهما جميعاً دون خجل لأنها لا تعرف ولا تدرك .

ومَنْ كانت هذه حاله ، لا يُؤمر ولا يُنهَى ، فإذا كانت الدابة فى الحقل واقفة وقيل لها كلى من هذا النبات دون هذا فإن هذا الأمر باطل ، لأنه لم يصادف محله فإذا أكلت الدابة من كل نبات وصلت إليه كان الخطأ خطأ مَنْ أمرها ونهاها .

فإذا كان آدم لا يعرف (وهذا ما تقوله عبارات العهد القديم) فإنه لا يُكلَّفُ ، وإذا كُلِّفَ فتكليفه كعدمه .

وهكذا نرى أنَّ الخطيئة غير موجودة فى حق آدم ، والجاهل إذا أخطأ فهو معذور مادامت لم تتوافر له سبل المعرفة ووسائلها ، أما إذا توافرت له وسائل المعرفة ثم قصر فى أن ينال هذه المعرفة فإنه ليس بمعذور إذا أخطأ [1] .

وآدم عليه السلام فى هذه الرواية لم يُقصِّر فى تحصيل المعرفة حتى يُؤاخذ بل لم تنشأ لديه غريزة المعرفة أو فطرتها إلا بعد أن أكل من الشجرة ، وفى هذه الحالة يجب أن يُثاب آدم لا أن يُعاقب بالطرد أو يعاقب بتلوث فى الدم يتوارثه أبناؤه ، وكأن شجرة المعرفة مرض أو وباء .

ثانياً : وإذا صحَّ أنَّ شجرة معرفة الخير والشر قد أصابت آدم بالخطيئة الملعونة فهل جاء الصَّلْبُ ليُخلِّص الإنسان مما أصابه ، ويعيده إلى البلاهة الحيوانية التى لا تشعر بالعرى ولا تخجل من العورة ؟

ثالثاً : وإذا صحَّ أنَّ الحية (أو الشيطان أو هما معاً) قد دلاَّ آدم على شجرة المعرفة التى منعه الله عنها فما معنى ذلك ؟ إنَّ معناه ببساطة أن يدين الإنسان بالولاء للشيطان أو للحية بمقدار ما يدين به من الولاء لله سبحانه وتعالى ، فإذا كان الله تعالى قد أنعم على الإنسان بالخلق فالشيطان قد أنعم عليه بالمعرفة .. ونعوذ بالله من الضلال .

رابعاً : إذا حاولنا الربط بين هذه الرواية وما دعا إليه بولس من التحرر من الناموس والشريعة ، وجدنا أن بولس يرى الخلاص وحده فى الجهل بالشريعة وتعطيلها ، ولهذا لا نعجب عندما نقرأ رسائل بولس فنراه يطيل فى فلسفة الخطيئة ويحاور ويُناور ليصل بالقوم إلى عكس ما دعاهم إليه المسيح عليه السلام : « ما جئت لأنقض الناموس ... » .

(١) وهذا معنى العبارة المشهورة التى نسمعها كثيراً (القانون لا يحمى المغفلين) ، والعبارة الأخرى (الجهل بالقانون لا يُعفى من المسئولية) ذلك لأنَّ وسائل المعرفة متاحة للإنسان ، ولكنه قصَّر فى تحصيلها فكانت المؤاخذة أقرب ، أما المجنون فهو غير مسئول عن أفعاله لأنه لم تتوافر له وسائل المعرفة لأنه فاقد الأهلية .

وإذا بنا نرى بولس يُعطى نفسه حقَّ التشريع والأخذ عن المسيح ليقول لهم : « انقضوا الناموس وتحرروا من الشريعة ولا تختتنوا » ... إلخ ما نسخ وحكى .

ويمكن تلخيص تعاليم بولس على الوجه الآتى :

ما دامت الشريعة قائمة فالخطيئة تُرتكب ، ولكن المسيح أبطل الشريعة بصلبه فبطل ارتكاب الخطيئة .

القضية الكبرى صحيحة ، فإن الشريعة عبارة عن الأوامر والنواهى التى تبيِّن للناس حكم الأمر الإلهى المطلق ومشيئته ، وإنَّ الذى يعين الوظيفة والحقوق هو القانون ، والقانون نفسه هو الذى يعين المسئولية والجزاء أيضاً ، وكما أن الطاعة للشريعة تعدُّ صلاحاً فمخالفة الشريعة تحسب خطيئة ، فبولس يسوق نتائج أقيسته كلها فى هذا المركز .

« وما دام الأمر باقياً فالوظيفة بالطبع ثابتة ، وحينما يرتفع الأمر تُلغى الوظيفة » وبناءً عليه فالمسئولية (أى الصلاح والخطيئة) موقوفان على وجود الشريعة ، وباعتبار النتيجة كما أن الصلاح أى طاعة الشريعة يوجب النجاة فالخطيئة (أى تعدى الشريعة) تنتج الهلاك ، إذن فالشريعة هى التى تعرف الخطيئة وتميزها وتفرقها ، لأنه إن لم تكن الشريعة فبأى واسطة أتمكن من معرفة الحلال من الحرام والخير من الشر والفضيلة من الرذيلة ؟ والخلاصة كيف أعرف الخطيئة والسيئة والمعصية ؟

يقول بولس : « بالشريعة تُعرف الخطيئة » (رو ٣ : ٢٠)

ويقول : « فماذا نقول ؟ هل الشريعة خطيئة ؟ حاشا . بل لم أعرف الخطيئة إلا بالشريعة ، فإننى لم أعرف الشهوة لو لم تقل الشريعة لا تشته ، ولكن الخطيئة وهى متخذة فرصة بالوصية أنشأت فىَّ كل شهوة ، لأن بدون الشريعة الخطيئة ميّتة ، أما أنا فكنت بدون الشريعة عائشاً قبلاً ولكن لما جاءت الوصية عاشت الخطيئة فمتُّ أنا ، فوجدت الوصية التى للحياة هى نفسها لى للموت ، لأن الخطيئة وهى متخذة فرصة بالوصية خدعتنى بها وقتلتنى ، إذاً الشريعة مقدّسة والوصية مقدّسة وعادلة وصالحة » . (رو ٧ : ٧ – ١٢)

وتتضح معالم فكر بولس فى هذا الموضوع باستعراض بعض توجيهاته المختلفة :

« لأنه بأعمال الشريعة كل ذى جسد لا يتبرّر أمامه » (رو ٣ : ٢٠)

« فإنه يصير إبطال الوصية السابقة من أجل ضعفها وعدم نفعها أو الشريعة لم تكمل شيئاً » (عبرانيين ٧ : ١٩)

« المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنة لأجلنا » (غلاطية ٣ : ١٣)

ويقول : « الآن تحررنا من الشريعة » (رو ٧ : ٦)

« فإن الخطيئة لن تسودكم لأنكم لستم تحت الشريعة بل أنتم تحت العناية » . (رو ٦ : ١٤)

« المسيح صار لعنة لأجلنا إذ خلّصنا من لعنة الشريعة » (غلاطية ٣ : ١٣)

وخلاصة هذه التعاليم أن بولس يحاول أن يُثبت تعليمه الوحيد ، وهو عبارة عن أن دم المسيح صار كفارة أعتق العالم وخلّصه من لعنة الشريعة ومن أسرها [1] .

فماذا قال القرآن في هذه النقطة ؟

حكى لنا القرآن الكريم قصة خلق آدم ووضح أن الله تعالى قد أنعم عليه بالعلم كما أنعم عليه بالخلق ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ (البقرة : ٣١)

وقد هيأ الله له وسائل المعرفة وعندما قصّر في التنفيذ عُوقِبَ على هذا الخطأ .

فلم يكن الشيطان أو الحية بمثابة الآلهة للإنسان ولم يرجع الفضل إليهما في توجيه الإنسان للمعرفة ، وليس هنا مجال التفصيل ... فليرجع – من شاء – إلى القصة في مظانها من كتب التفسير .. والدراسات المختلفة والحمد لله على نعمة الإيمان .

خلاص الرسل منظومة إلهية لا تختلف

قال الله تعالى في القرآن الكريم : ﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ (الإسراء : ٧٧)

اعلم أن الله تعالى اختط خطة في رسله وجعل لهم الغلبة كما قال تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (المجادلة : ٢١) ، وقال سبحانه : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ

(١) كتاب « الإنجيل والصليب » عبد الأحد داود ص ١٦٢ – ١٦٧ .

آمنوا كذلك ﴾ (يونس : ١٠٣) ، فهى سنة إلهية لا تتخلف ؛ فقد نجى الله تعالى إبراهيم من النار حين قذفه الكفار فيها انتصاراً لآلهتهم الكاذبة ؛ ونجى إسماعيل من الذبح وفداه ، ونجى يوسف من السجن ومن المهالك حتى جعله عزيزاً فى مصر ونجى يونس من بطن الحوت ونجى موسى ، وهو رضيع فى التابوت ثم نجاه ونجى قومه من فرعون بأن شق لهم البحر، ونجى عيسى المسيح عليه السلام من مطارديه ورفعه الله إليه ونجى محمداً ﷺ من أعدائه ليلة الهجرة فلم يتمكن منه القتلة وآواه فى الغار وسخر له العنكبوت فنسج خيوطه على باب الغار .

إنها السنَّة الإلهية التى لا تتخلف ولم يشذّ أحد عن هذه القاعدة سوى ما فعله بنو إسرائيل بأنبيائهم ، كما قال تعالى : ﴿ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُم وفَرِيقاً تَقْتُلُونَ ﴾ (البقرة : ٨٧)

وكان هذا ابتلاء لهم لإظهار عدم أحقيتهم بالاستخلاف والتفضيل الذى نقل عنهم وشرفت به أمة محمد ﷺ ، كما قال تعالى : ﴿ كُنتُم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾ (آل عمران : ١١٠)

الخلاصة

من الأمور التى استقرت فى معتقد النصارى أن المسيح عليه السلام هو المخلّص الذى قدّم نفسه على الصليب ليفتدى الجنس البشرى من لعنة الخطيئة .

وهذا المعتقد وقف أمامه كثير من المفكرين المسلمين يحاولون تفنيده عقلياً ودارت معظم مجادلاتهم حول الصلب وأنه لا يجوز عقلاً صلب (الابن) لإرضاء (الأب) ليتجاوز عن خطايا البشر ؛ واستغرقت هذه المجادلات الكثير والكثير من الصفحات والوقت؛ ومما غاب عن الكثير من الباحثين عن الحقيقة معنى الخطيئة التى كفَّرها المسيح عليه السلام بأن قدم نفسه على الصليب (فى زعم من يعتقد ذلك) ليفتدى الجنس البشرى فظنوا أن هذه الخطيئة هى مجرد أكل آدم من الشجرة التى نهى عنها ، وقد كثر الحديث كما قلنا دون نتيجة واضحة والحقيقة أن مسألة افتداء الجنس البشرى لها معنى خاص فى التفكير (المسيحى) فقد حدد بولس القضية متمثلة فى النقاط الآتية :

* أكل آدم من الشجرة رغم تحذيره من ذلك .

* طرده الله من الجنة وأنزله إلى الأرض .
* كان مقتضى ذلك أن يشقى آدم بتكليفات الناموس (القانون والشريعة) .
* وظل هذا الشقاء ملازماً للجنس البشرى بإرسال الأنبياء وتكليف الناس .
* إلى أن جاء المسيح المخلص .. الذى أنقذ البشرية من لعنة الناموس ، وحررهم من الالتزام بقانون الشريعة .
* قدم المسيح (فى زعمهم) نفسه من أجل ذلك ولما علّق المسيح على الصليب .. صار لعنة ، ورضى لنفسه أن يكون لعنة ليخلصهم من لعنة الشريعة (الناموس)[1] .
* وعلى هذا فهم يعيشون فى براح ويرتعون فى عالم بلا قانون إلهى يفعلون ما يشاءون دون خوف من عقاب إلهى ؛ لأن المسيح قد حمل ذلك عنهم .

وإن صحّت هذه الافتراضات عنهم وهى موجودة فى رسائل بولس وبالنص : صار المسيح لعنة ليخلصهم من لعنة الناموس .

أقول : إن صحت فإنك تستطيع أن تفهم ما يجرى فى الدول التى تدين (بالمسيحية) فى أوربا وأمريكا :

١ – الزنى العلنى .. وممارسة الرذيلة .

٢ – الشذوذ الجنسى .

٣ – التعامل الربوى .

٤ – رفض الطلاق ورفض الزواج من أكثر من واحدة رغم السماح باتخاذ الأخدان ومعاشرة غير الزوجات .

٥ – عدم الالتزام بعبادات مفروضة وإطلاق يد الأحبار والرهبان فى تشريع ما يشاءون من قداسات ، والتصرف فى الصيام حسب الرغبة فمن صيام كبير إلى صيام غير كبير ، ثم صيام انقطاعى من منتصف الليل إلى منتصف النهار .

٦ – شرب الخمر وبيعه وتداوله .

---

(١) رسالة بولس لأهل رومية (٧ : ٤ – ٦) ، وراجع ما كتبناه عن هذا الموضوع تحت عنوان : أين الحقيقة .

٧ – أكل لحم الخنزير والميتة .

وغير ذلك مما لو قلّبنا صفحات الكتاب المقدس بعهديه لوجدناه يصرح بضدها .

والباحث حين يجهد نفسه فى البحث فى الكتاب المقدس لإثبات أن مـا هم عليه لا يمثل الحقيقة فإنهم لا يعيرونه أى التفات ؛ لأنهم بما يعتقدونه من الصلب فداء للخطيئة قد أفلتوا من حيز التشريع ولعنة الناموس ؛ لأنه بالناموس يعرف الإنسان الخطأ والصواب ، أما حين أفلت من الناموس وأنقذ المسيح الناس من لعنة الناموس فقد صاروا أحراراً غير مخطئين مهما فعلوا ، ومهما خالفوا غيرهم من أصحاب النواميس سواء من السابقين كاليهود أو من اللاحقين كالمسلمين .

ولذلك لا تعجب حين تقـرأ لبولس فى رسائله أن الختـان الذى أمـرت به الشريعـة (شريعة موسى) غير مطلوب ؛ لأن المطلوب أن يصيروا مختونين بالقلب . يعنى الختان المعنوى .

وأيضاً لا تعجب حين جعل بولس نفسه لليهودى كيهودى . ولأصحاب الناموس مثلهم وللخارجين عن الناموس كأنه بغير ناموس (أى شريعة) وهذا ما صرح به فى رسائله .

لا تعجب من هذا ولا من غيره مما هو أشد منه أو أقل عجباً منه . لأن الصلب قد أنهى القضية فى زعمهم ؛ ولهذا فإن من الطبيعى أن تصير البيئة المسيحية فى أوروبا وأمريكا أرضاً خصبة للآراء المخالفة . ففيها نبت الإلحاد وفيها ظهرت دعوات الخروج على المجتمع وفيها ازدهرت النظريات الشيوعية فى السياسة والاجتماع . وسادت نظريات ودعوات كثيرة لا يمكن تفسيرها إلا بهذا المنطق فى فهم الخطيئة .

وليس لنا من تعليق على هذه النظرة إن كانت صحيحة إلا أنها دعوة للهدم وإبطال الإيمان واتهام للحكمة الإلهية التى رضيت بتقديم الكبش وتحويله إلى لعنة ليمرح الناس كما يشاءون بعيداً عن الرقابة الإلهية . بل ولا يملك الإنسان إلا أن يتساءل عن الحكمة فى تأخير الفداء أجيالاً يشقون بالناموس لينعم أجيال أخرى بعد ذلك بالتحرر من هذا الناموس .

وتلك دعوة إلى أن يتفوق الزنديق على الصدّيق ، ويتبـوأ فيها الفاسق منـزلة فوق الأبرار .

وصدق الله العظيم حين يقول فى القرآن وقوله الحق ﴿ وإذَا قِيلَ لَهُم لا تُفسِدُوا فى الأرْضِ قَالُوا إنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ * ألاَ إنَّهُم هُمُ الْمُفْسِدُونَ ولكنْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ (البقرة : ١١ ، ١٢)

إن مثل هذه الدعوة إبطال للعزة الإلهية وما يشرعه الله لخلقه ، وفى نفس الوقت فيها إطلاق لأيدى الأحبار والرهبان يشرعون لأتباعهم كما يشاءون ، وهذا ما نعاه القرآن عليهم فى قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أحْبَارَهُم ورُهْبَانَهُم أرْبَاباً مِنْ دُونِ الله والمسيحَ ابنَ مَرْيَمَ ﴾ . (البقرة : ٣١)

والله يقول الحق وهو يهدى إلى سواء السبيل .

الفصل الثالث

الخطيئة والخلاص في الإسلام – أو التوبة

تمهيد

عُرِفَت في الإسلام التوبة بهذا الاسم ولم تُعرَف باسم الخلاص ، وإنما جعلنا العنوان « الخطيئة والخلاص » جرياً على ما سبق وعرضناه في الفصلين السابقين .

والتوبة باب عظيم في الإسلام إذ يفتح باب الأمل أمام كل مسلم وبلا استثناء ، للرجوع إلى الخير ، واستئناف رحلة العمل الصالح.. ويستطيع المسلم أن يقوم بكل شيء، فلا واسطة ، ولا تدخل من أحد . والإسلام يخلي بين المسلم وربه، فقد أخذت النصوص بيده ودلته على المسار الصحيح .. كما سنرى إنْ شاء الله تعالى .

خطيئة آدم وموقف الإسلام منها

يذكر القرآن الكريم قصة الصراع بين آدم عليه السلام والشيطان حيث استطاع الشيطان أن يُخرجَ آدم من الجنة فقد زيّن له أن يأكل منْ الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها قال تعالى : ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة : ٣٥)

ولم يترك الشيطان آدم وزوجه يهنآن بحياتهما بل تمكّن من إغوائهما : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى . فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ (طه : ١٢٠ ، ١٢١)

وكان لابد من أن يهبط آدم وزوجه من الجنة وكان الأمر الإلهي : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ (طه : ١٢٣)

وهكذا نزل آدم وزوجه من الجنة بسبب الخطأ الذي أوقعه فيه الشيطان ، قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ (طه : ١١٥)

وهنا يحسم القرآن قضية الخطيئة ، فى صراحة وبساطة وفى أسلوب قاطع لا يدعْ مجالاً للاجتهادات الشخصية أو التخمينات العشوائية ، بل وضعها فى إطارها الطبيعي المتفق مع قوانين العقل ، وضرورات الحياة الأرضية التى نزل إليها آدم .

وكان أول شيء أن أعلن آدم وزوجه حواء الندم ، واعترفا بخطيئتهما : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (الأعراف : ٢٣)

وبعد ذلك ألهمه الله التوبة : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ . (البقرة : ٣٧)

وهكذا قضى الله بأمره فى خطيئة آدم ، ورفع مكانه إلى عليين : ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ (طه : ١٢٢) ، اصطفاه واختاره بالمنزلة السامية عنده .. وبدأ آدم عليه السلام رحلة الحياة الأرضية – هو وزوجه – دونما خطيئة ، ولا يؤرقهما ذنب فلقد منَّ الله عليهما بالتوبة – ورفعهما مكاناً علياً .

وقد بدأت معركة طويلة .. معركة بين الإنسان والشيطان على الأرض .. اختبار مستمر يتعرض له أبناء آدم ، ومن نجح عاد إلى الجنة ، ومَنْ ضعف أمام الشيطان هوى معه إلى الجحيم .

وقد أمدَّ الله بنى آدم بوسائل عديدة لمواجهة الشيطان والانتصار عليه وفتح له باب الخلاص وذلك بالتوبة .. وهو ما سنفصله فيما بعد إن شاء الله تعالى .

الخطيئة وفطرة الإنسان

لم يخلق الله الناس معصومين من الخطأ بعيدين عن الزلل ، بل جعلهم الله قادرين على فعل الخير والشر ، قال تعالى :

﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ (البلد : ٨ – ١٠) ، والنَّجدان : الطريقان الواضحان طريق الخير وطريق الشر .. وهذا بعض معانى الكلمة [(١)] .

وقال سبحانه : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ (الشمس : ٧ – ١٠)

(١) انظر : لسان العرب (مادة : نجد) .

والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة يستطيع أن يلحظ ما يأتى :

أولاً : قوله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ إشارة إلى أن هذه النفس الإنسانية وبالصورة التى هى عليها – فى أتم خلقها – كما قال سبحانه : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ (غافر : ٦٤، والتغابن : ٣) فلا نقص فى النفس الإنسانية ولا نشويه .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ جعل الله الأمرين فطرة .. وفى طبيعة الخلق والتكوين .. وقدمت الآية الفجور على التقوى إظهاراً لإمكان غلبة الغرائز والشهوات وإمكان تسخيرها للشيطان .. وفى التقديم تنبيه على خطورة الفجور على حياة الإنسان إذا تغلّب .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ كررت الآيات لفظ « قد » للتوكيد على كلٍّ من الأمرين للإشعار بأن لكل أمر منهما مجاله ، ولا ينبغى أن يختلط أحدهما بالآخر فيظن فى أسباب التزكية أنها ليست أهلاً لذلك .. وكذا فى أسباب التدسية [1] .

ونلحظ كذلك أن الآية هنا قدمت التزكية . للاهتمام والتنبيه على ضرورة السعى إليها .. فينبغى أن تكون مقدّمة فى كل عمل للإنسان .

ويُوضح رسول الله ﷺ أن الذنب مُركّب فى فطرة الإنسان ، ففى الحديث القدسى أن النبى ﷺ قال : « إن الله تبارك وتعالى يقول : يا عبادى كلكم مذنب إلا من عافيت، فاستغفرونى أغفر لكم ... » [2] .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل ابن آدم خطّاء وخير الخطائين التّوابون » [3] .

وهكذا يُوضح الرسول ﷺ أن الخطأ فى حد ذاته من طبيعة الإنسان ، وذلك حتى لا يخجل الإنسان من نفسه ، وحتى يستطيع أن يواجه خطأه مواجهة طبيعية بلا حساسية أو عجز ، أو غير ذلك مما يُضاعف مخاطر الذنب على النفس والمجتمع على السواء .

---

(١) التدسية (ضد التزكية) ، وهى تدنيس النفس بارتكاب الخطايا والذنوب .

(٢) رواه أحمد وابن ماجه .. ومعناه عند مسلم .

(٣) رواه أحمد والترمذى .

ويبلغ حرص الإسلام مداه على أن يقف الإنسان فى مواجهة صريحة مع ذاته ، حتى يتقبل وجوده كما هو ، فلا هو بالشيطان المجرم ، ولا هو بالملك المسخَّر ، وإنما هو إنسان فيه الخير وفيه الشر ، وهو مطالب بتنمية الخير والحد من الشر .

عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «كفارة الذنب الندامة» .

وقال رسول الله ﷺ : « لو لم تُذنبوا لجاء الله عز وجل بقوم يُذنبون ليغفر لهم » [(١)].

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « والذى نفسى بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض لم استغفرتم الله عز وجل لغفر لكم ، والذى نفس محمد بيده لو لم تخطئوا لجاء الله عز وجل بقوم يخطئون ثم يستغفرون الله فيغفر لهم » [(٢)].

أرأيت كيف يفتح الإسلام باب الأمل والإقبال على الحياة أمام أتباعه !!

إن الخطيئة - إذن - هى سبب نزول آدم إلى الأرض ، وقد استمر أبناء آدم - إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها - فى مواجهة الشيطان ، لا بخطيئة آدم - كما تزعم بعض الأديان - ولكن بطبيعتهم وفطرتهم وما يعتريها من تغييرات وأطماع وشهوات .

الله يفرح بتوبة عبده المؤمن

إن الله بالناس لرؤوف رحيم ، لا يحجب عنهم رحمة ولا يقف لهم يترصد خطاياهم ليذلهم بها ... وإذا كان البعض من البشر يتحين الفرص للإيقاع بغيره ، واستخدام هفواته للنيل منه وإيذائه .. فإن المولى سبحانه وتعالى لطيف بعباده ينتظر عودتهم إليه ويفتح لهم جميع الأبواب إليه .

روى عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها » [(٣)] . فكل أوقات اليوم محلٌ للتوبة .

---

(١) رواه أحمد ، وله شواهد .

(٢) قال فى الفتح الربانى : رجاله ثقات .

(٣) رواه الإمام أحمد ومسلم . وطلوع الشمس من مغربها يعنى يوم القيامة ؛ لأن هذا من علاماتها.

ويسوق الحديث الشريف الآتي جانباً من جوانب فضل الله تعالى على عباده المؤمنين : عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن الله عز وجل يقول : يا عبدى ، ما عبدتني ورجوتني فإني غافر لك على ما كان فيك ، ويا عبدى إن لقيتنى بقراب الأرض خطيئة ما لم تشرك بي لقيتك بقرابها مغفرة » [1] .

وعن النبي ﷺ قال : « قال الله عز وجل : يا ابن آدم قم إلىَّ أمشِ إليك ، وامش إلىَّ أهرول إليك » [2] .

وقال ﷺ : « مَنْ تقرَّب إلى الله عز وجل شبراً تقرَّب إليه ذراعاً ، ومَنْ تقرَّب إليه ذراعاً تقرَّب إليه باعاً ، ومن أقبل إلى الله عز وجل ماشياً أقبل إليه مُهَرْولاً ، والله أعلى وأجل » [2] .

وهكذا نرى أن الباب مفتوح على مصراعيه أمام المؤمنين ، يبسط إليهم ربهم يده ويمنحهم الأمل ، ويزداد التفاؤل والرغبة في التوبة عندما نقرأ التصور النبوى للفرحة الإلهية بتوبة العبد المؤمن ، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَلّهُ أفرح بتوبة أحدكم من رجل خرج بأرض دوِّية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه وزاده وما يُصلحه ، فأضلَّها فخرج في طلبها ، حتى إذا أدركه الموت فلم يجدها قال أرجع إلى مكاني الذى أضللتها فيه فأموت فيه . قال : فأتى مكانه فغلبته عينه فاستيقظ فإذا راحلته عند رأسه عليها طعامه وشرابه وزاده وما يصلحه » [3] .

زاد في رواية : « فما هو بأشد بها فرحاً من الله بتوبة عبده إذا تاب » .

ولنقرأ الآن هذه الآيات المباركات لنرى كيف تلمس قلب المؤمن بحنان وتتجه إلى روحه في إشفاق وحُب ، يقول تعالى موجهاً الخطاب إلى نبيه ﷺ :

﴿ نبِّئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم * وأنَّ عذابى هو العذاب الأليم ﴾ (الحجر : ٤٩ ، ٥٠)

وهذا السياق البُشرى لعباد الله ، إذا اقتربوا من الله تعالى .

يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ

(١) رواه ابن ماجة والإمام أحمد . وله شواهد . (٢) رواهما أحمد .

(٣) رواه الإمام أحمد بطرق مختلفة ، وزاد مسلم في رواية : « ثم قال : اللهم أنت عبدى وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح » .

الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (الأنعام : ٥٤)

وهذا أسلوب فى منتهى التسفف والمودة :

* سلام عليكم ..

* كتب ربُّكم على نفسه الرحمة .. ولن يخلف اللهُ وعدَه ..

وتأمل معى ذلك القول الرحيم ، الذى يأخذ بمجامع القلوب ويدخل إلى النفس من كل مدخل رفيق رقيق :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (الزمر : ٥٣)

آيات باهرات .. تقطع بفضل الله تعالى على عباده المؤمنين ، ولو تتبعنا آى القرآن الكريم لضاق بنا المجال ، ولكننا اكتفينا بهذه الآيات العظيمة توضيحاً للهدف ، ألا وهو فرحة رب العزة بعودة العبد إليه سبحانه وتعالى . وقد رأينا كيف مهدت لهم العناية الإلهية الطريق للعودة دائماً وفى أى وقت وبلا خوف قبل أن تطلع الشمس من مغربها .

حساسية المؤمن للذنب

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : إنَّ المؤمن يرى ذنوبه كأنه فى أصل جبل يخاف أن يقع عليه ، وإنَّ الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال له هكذا فطار .

وهذا تحليل صادق لطبيعة المؤمن إزاء ذنبه ، وكذا طبيعة الفاجر الذى يستهين بذنوبه ولا يعمل لها حساباً .

وقد قال الله تعالى مبيناً يقظة المؤمن بالعودة إلى الصواب إذا زلَّ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ * وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ ﴾ . (الأعراف : ٢١٠ ، ٢٠٢)

والآيات توضح جانبين من جوانب مواجهة الخطيئة :

الأول : جانب المؤمنين الذين ينتبهون سريعاً ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ أى يقظون .

الثانى : جانب الإغواء .. وهو الذى وضَّحته الآية فى قولها : ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ ﴾ .. والغىُّ : الضلال ، وهم لا يقصرون : فى التأثير عليهم ومحاولة إغوائهم .

ويضرب الرسول ﷺ المثل للمؤمن وسرعة رجوعه عن المعصية ، فعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « مثل المؤمن ومثل الإيمان كمثل الفرس فى آخيته يجول ثم يرجع إلى آخيته ، وإن المؤمن يسهو ثم يرجع فأطعموا طعامكم الأتقياء ، وأولوا معروفكم المؤمنين » (١) .

والحديث يوضح بجلاء كيف أن المؤمن مرتبط بإيمانه حتى إذا سها وقارف الذنوب فإنه يعود سريعاً إلى إيمانه ، لا يغيب عنه .

ولعل فى هذا الحوار الذى دار بين رسول الله ﷺ وأحد أصحابه ، ما يوضح رغبة المؤمن فى الرجوع إلى الله . فعن أبى طويل أنه أتى النبى ﷺ فقال : « أرأيت من عمل الذنوب كلها ولم يترك منها شيئاً وهو فى ذلك لم يترك حاجة ولا داجة (أى صغيرة ولا كبيرة) إلا أتاها ، فهل لذلك من توبة ؟ قال : فهل أسلمت ؟ قال : أما أنا فأشهد أنْ لا إله إلا الله وأنك رسول الله . قال : تفعل الخيرات وتترك السيئات .. فيجعلهنَّ الله لك خيرات كلهن (أى إذا تركت السيئات بدَّلها الله حسنات) . قال : وغدراتى وفجراتى ؟ (أى الخيانات والمعاصى) . قال : نعم . قال : الله أكبر .. فمازال يكَبِّر حتى توارى » (٢) .

ومصداق ذلك من كتاب الله تعالى : ﴿ إِلاَّ من تاب وآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (الفرقان : ٧٠)

وأخيراً تأمل معى قوله تعالى مبيناً سرعة عودة المؤمن إلى الله وتذكُره :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران : ١٣٥)

المستحقون للتوبة والمحرومون منها

من الأمور البديهية فى الإسلام أنَّ حقائقه تعتمد على أَسَاسَىْ العمل والإخلاص لله وحده لا شريك له ، ولا شأن لأحد من الناس بهذين الأساسيين ، فالإسلام يخلى بين

(١) رواه المنذرى فى الترغيب والترهيب (باب التوبة) والآخية ما يُربَط فيه الدابة كالوتد ونحوه ، ويجول أى يدور ..

(٢) انظر : الترغيب والترهيب ، للمنذرى ، باب التوبة ، قال : إسناده جيد قوى .

الفرد وربّه ، لأن الله هو المطلع على خفايا القلوب وأسرار النفوس ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . ولذلك فلا واسطة بين الإنسان وربّه ، ولا سلطان لأحد على أحد إلا أن يوجّه العالمُ الجاهلَ ، ويأخذ البصير بيد إخوانه ليدلّهم على الطريق .. فقط .. أما قبول الأعمال وغفران الذنوب فأمرها إلى الله تعالى وحده يفصل فيها .

ولقد جاء أمر التوبة – في الإسلام – متسقاً مع مبدأ المسئولية الفردية التي أقرّها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهّرة .. حيث وضع الإسلام كل فرد أمام مسئولياته .. فأعطاه حق الاختيار :

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (الكهف : ٢٩)

وأمام هذا الحق وُضعتْ المسئولية الفردية :

﴿ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (الإسراء : ١٥)

وأعطاه حرية التصرف :

﴿ ... اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ... ﴾ (فصلت : ٤٠)

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ﴾ (الإسراء : ٨٤)

ومع هذا الحق يرتفع مبدأ تَحمل النتائج .. مبدأ المسئولية على العمل :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (فصلت : ٤٦)

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ (الإسراء : ٧)

ولا عذر لمعتذر – يوم القيامة – بعدما وضحت الأمور ، وعمّتْ الرسالة ، ولن يُقْبَلَ عذر التبعية لأحد ، إذ لا بد أن يتحمل كل فرد مسئوليته ، ومَنْ عطّلَ عقله وجعله تابعاً لعقل غيره وفكره فليتحمل مسئولية ذلك :

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ (إبراهيم ٢١)

بل إنَّ الشيطان نفسه يُحمل كل فرد مسئوليته – يوم القيامة – ويتنصل من كل تبعة أو مسئولية فيقول :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم

مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾ (إبراهيم : ٢٢)

هكذا بوضوح وصراحة يقف كل إنسان ، بل كل كائن ، أمام مسئوليته الفردية . ويُعتبر فتح باب التوبة أمام المؤمنين امتداداً لهذا المبدأ ، مبدأ المسئولية الفردية ، إذ أراد الإسلام أن يضع الفرد أمام مسئوليته الكاملة .. فوضّح له الحقائق الآتية :

* إنّه قد يُخطئ ، وهذا لا شيء فيه .. وقد وضّحنا هذا الأمر .

* إنّ عودته إلى الصواب تفتح له باب « حب الله » قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾ (البقرة : ٢٢٢)

* على المسلم أن يكون يقظاً فلا يترك للشيطان فرصة على نفسه أو باباً إلى قلبه إلا وبادر لإغلاقه .

فإذا تحققت فى المؤمن هذه الأمور الثلاثة كان حقاً على الله أن يتوب عليه ويهديه إلى سواء السبيل .

وقد قطع الله العهد على نفسه – ولن يُخلف الله عهده – بأن يَمُنَّ بالتوبة على المؤمنين الحريصين عليها ، قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (النساء : ١٧ ، ١٨)

وقد حددت هذه الآيات شروط التوبة المقبولة وأحوال التوبة المرفوضة وهاكم البيان :

* نلحظ أن الآيات تصدرت بالتوكيد فى الجانب الخاص بالتوبة المقبولة إذ استخدمت « إنما » ، كما جعلت التوبة عهداً « على الله » ، أما الجانب الآخر – جانب المحرومين – فقد جاء الإخبار عن حرمانه إخباراً قاطعاً حيث قال تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ ، ولم يرد فى السياق لفظ العهد وهو قوله تعالى « على الله » وهو الذى ورد فى الجانب الخاص بالتوبة المقبولة ، وذلك ليُوضح أن المحرومين ليس لهم على الله عهد .. وإنما العهد للمقبولين وحدهم ، فالتوبة لهم « على الله » عهداً قطعه الله تعالى على نفسه تطميناً لنفسهم .. ولكن من هم المقبولون ؟

لقد حددت الآيات خاصيتين من خواص هؤلاء السعداء :

أولاهما : أنهم يعملون السوء بجهالة .. والجهالة تحمل معنى الجهل .. ولكنها تزيد فتصف حالة الاندفاع .. التى يتصف بها الإنسان العاصى لحظة ارتكابه المعصية .. حيث تغريه الظروف وتدفعه إلى ارتكاب الإثم دون تدبير أو تخطيط .. ويؤيد هذا ما جاء فى سياق الآية .. حيث قال تعالى : ﴿ **ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ** ﴾ ، مما يدل على أنهم ليسوا مُصرِّين على الذنب ، ولم يدبروا له كسائر المجرمين الذين يقضون الليل ساهرين يخططون لجرائمهم .

أما الثانية : فهى إسراعهم إلى التوبة بحيث لا يمر وقت طويل إلا وتكون التوبة قد أخذت طريقها إلى قلوبهم « مِن قَرِيبٍ » ، كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴾ [1] (الأعراف : ٢٠١)

* أما المحرومون فهم هؤلاء الذين يعيشون غارقين فى الشهوات وفعل السيئات غافلين عن العاقبة التى تنتظرهم ، ولا يفيقون إلا على الحقيقة .. بعد فوات الأوان .

* إذا حضرهم الموت .. وبلغت الروح الحلقوم .

* أو يموتون كافرين .

وفى كلتا الحالتين لا تُقبل التوبة مطلقاً ، كما صرَّحتْ بذلك الأحاديث النبوية الشريفة .. تأكيداً لما جاء فى القرآن الكريم .

من فضل الله تعالى على المؤمنين

نُجمل هنا بعضاً من فضل الله على عباده المؤمنين ، ويتمثل هذا الفضل فيما يمنحه الله لعباده من عطايا غير منظورة ، أخبرنا بها القرآن الكريم ، كما دلّتنا عليها السنة النبوية الشريفة .. وهاكم بعض تلك المنح :

١ – **المنحة الإلهية** : وهى التى ذكرها القرآن فى قوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا** ﴾ (الأحزاب : ٤٣)

وصلاة ربنا رحمة لنا يوضح ذلك قوله تعالى : ﴿ **لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾ .

---

(١) إذا (الثانية) فجائية وتدل على السرعة والفاء تأكيدٌ لهذه السرعة ، أما إذا (الأولى) فهى شرطية للمستقبل .

٢ - المنحة النبوية : وقد ذكرها القرآن في قوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (التوبة : ١٠٣)

وصلاة الرسول ﷺ استغفار وشفاعة .

٣ - المنحة الملائكية : وقد جاءت في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۞ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (غافر : ٦ - ٨)

فانظر إلى رحمة الله تعالى بالمؤمنين إذ سخَّر لهم حملة العرش ومَنْ حوله .. من الملائكة .. يسبِّحون الله تعالى ، ويستغفرون للمؤمنين ، ويدعون لهم بالجنة ، فإذا نزلنا إلى ميدان المواجهة بين الناس والشيطان رأينا كيف أمدَّ الله المؤمنين بعونه وتأييده ليُبطل كيد الشيطان ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (النساء : ٧٦)

وليس معنى ذلك أن القرآن يُهوِّن من أمر هذه المواجهة .. بل إنها مواجهة خطيرة على الإنسان ، فقد زوَّد الشيطان بمقدرة على التعرف على مداخل النفس الإنسانية ونقاط ضعفها ، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف : ٢٧)

ولهذا زوَّد الله الإنسان بأسلحة للمواجهة مع الشيطان ومنها :

١ - جعل الله الحسنة بعشر أمثالها .. والسيئة بمثلها ، وهذا الحساب على الحسنات يُعتبر الحد الأدنى ، فهناك الحسنة بسبعمائة مثل ، وهناك الجزاء بلا حدود ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (الزمر : ١٠)

٢ - فتح لهم باب التوبة بعد السيئات فيبدِّلها الله لهم حسنات : ﴿ فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ (الفرقان : ٧٠)

٣ - فتح الله للمؤمنين أبواب الخير بلا عناء .. فجعل الكلمة الطيبة صدقة ، ومنح المؤمنين الأجر على النية الحسنة ، وعلَّمهم الاستغفار والتسبيح والتهليل ، وجعل أجر قراءة القرآن عظيماً .. على كل حرف عشر حسنات .

٤ – أعطى الله لنبيه الشفاعة العظمى يوم القيامة ، وجعله يشفع للمذنبين ، فيجيرهم الله من عذابه إكراماً لنبيه محمد ﷺ ، وقد وردت فى ذلك الأحاديث الصحيحة [١] .

فضل التوبة والاستغفار

أفرد العلماء من المسلمين– رضوان الله عليهم– كتباً للحديث عن التوبة والاستغفار، ومعظم من لم يتيسر له ذلك الإفراد جعل لهما باباً من أبواب كتبه ، والآن نأخذ بيدك إلى بعض معانى التوبة والاستغفار كما وردت فى بعض آيات القرآن الكريم لعلنا نفوز بالهداية إلى التوبة من الذنوب قبل الممات عسى الله أن يعفو عنا ، إنه هو العفو الغفور .

ومن أول المعانى التى نُذَكِّرك بها عن التوبة أنها باب من أبواب الحب لله عز وجل ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (البقرة : ٢٢٢)

ولما كانت التوبة وسيلة من وسائل التطهر وباباً من أبواب القرب لله تعالى جاءت التوبة سابقة على التطهر ، أو نقول : إن التوبة طهارة القلوب والتطهر بالماء طهارة الأبدان فقدم طهارة القلوب لأنها المعتبرة ، فمن كان كثير الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى فهو من التوابين ؛ ولهذا أوجب الله تعالى على نفسه أن يتوب على من يعمل السوء بجهالة ثم يطرق باب التوبة من قريب [٢] .

ولما كان أمر التوبة بهذه الخطورة ، وجّه القرآن أنظار المسلمين لذلك ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (التحريم : ٨)

(١) انظر باب الشفاعة فى كتب الأحاديث مثل : « التاج الجامع للأصول » ، « الترغيب والترهيب » وغيرها . وكذا أبواب التوبة والاستغفار فى كتب الحديث وخصوصاً فى « الترغيب والترهيب » للمنذرى ، وراجع كتاب « مدارج السالكين » لابن القيم ، جـ١ ص ١٧٦ وما بعدها ، فستجد بحثاً شيقاً عن التوبة وأسرارها .

(٢) راجع آيات سورة النساء ١٧ ، وقد سبق إيراد هذه الآيات .

وأدعوك أن تتأمل فى هذه الآية الكريمة أكثر من مرة لتدرك عظمة الآثار المترتبة على التوبة النصوح ، أى التوبة الصادقة الخالصة من شوائب الإصرار على الذنب أو التعلق القلبى به ، وذلك لا يكون إلا بالانصراف التام إلى الله عز وجل .

فإذا ما انتقلنا بك إلى بعض الآيات التى تناولت جوانب الاستغفار وجدنا الأمر فى غاية الأهمية ، كما سيظهر لك بعد ، والله الموفق .

الاستغفار شريعة السابقين

ليست دعوة القرآن إلى الاستغفار بدعاً فى الرسالات ، بل هى استمرار لدعوات الرسل السابقين الذين كان الاستغفار ركناً أساسياً فى دعوتهم وحياتهم ، ولعلك تذكر ما جرى ليوسف عليه السلام مما ورد فى السورة المسماة باسمه ، وحينما ظهرت الحقيقة لإخوة يوسف وعلموا أنهم أخطأوا فى حقه لم يوجّه لهم لوماً بل قال : ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليومَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (يوسف : ٩٢) ، ثم لما ظهر الأمر ليعقوب عليه السلام وعاد إليه بصره وطلب أبناؤه منه أن يستغفر لهم كان موقفه كما حكاه القرآن الكريم : ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (يوسف : ٩٨)

ولما اختصم قوم صالح « ثمود » فى رسالته واحتلفوا بادرهم بالإنكار عليهم فذكر ما حكاه القرآن الكريم : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (النمل : ٤٦)

فالخلاف باب النقمة ، والاستغفار باب الرحمة . والاستغفار فى شرع صالح عليه السلام – فوق ما سبق – من باب شكر النعمة والاعتراف بالفضل ، وأول الأفضال فى مفهوم الأنسان الإنعام بالإيجاد من التراب ثم التمكين للإنسان فى الأرض ولهذا قال لهم عليه السلام : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ واسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إليه إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ (هود : ٦١)

وفى شريعة النبى ﷺ نجد الاستغفار دافعاً للعذاب ، قال تعالى : ﴿ ومَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (الأنفال : ٣٣)

والاستغفار كذلك باب من أبواب الدخول إلى رحاب الله عز وجل ، ذلك لأن الذنب والسوء من أسباب الإبعاد عن رحمة الله تعالى ، فلما جنى الإنسان على نفسه بالذنب

وأبعدها عن خالقها وصارت مراحاً للشياطين امتن الله تعالى على عبده فيسر له طريق الرجوع إلى الرحمة والرضوان ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ (النساء : ١١٠)

وأنا أدعوك – أخي القارئ – لأن تتوقف طويلاً أمام هذا التعبير الرائع ﴿ يجد الله ﴾ وكأنى بالضال قد ضاعت منه الحقيقة وانغمس فى ظلم نفسه ويأتى الاستغفار طوقاً للنجاة يعود به إلى الله تعالى . كما أدعوك إلى أن تتوقف أمام خاتمة الآية إذ كان مقتضى الكلام البشرى لو قلنا ذلك لكان النظام ﴿ ثم يستغفر يجد الله غفوراً ﴾ فالاستغفار يقتضى الإجابة بالمغفرة ولكن رحمة الله تتسع للمستغفر فيكون أهلاً للرحمة ، فقال تعالى : ﴿ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ .

وإذا كان المؤمن يطمع فى عفو ربه فليظهر من نفسه درجة الاستحقاق لهذه المكرمة أو قل لهذه المنزلة عند الله ، وذلك بأن يغفر للآخرين مآخذهم ومعايبهم ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (التغابن : ١٤)

وإذا كان المؤمن يدفع البغى عن نفسه وأهله كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ (الشورى : ٣٩)

والبغى محرم ولذا وجب دفعه والانتصار ممن بغى ليرتدع ، ومع ذلك فالمؤمن يأخذ بالعزيمة فقال تعالى : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (الشورى : ٤٣)

بل إن المؤمن مطالب بأن يتجاوز عن الضلالات فلا يتوقف أمامها إلا للتنبيه والنصيحة قياماً بحق المؤمن فى أن ينصحه أخوه المؤمن وكذلك حق الكافر أن يسمع كلام الله ، قال تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ ... ﴾ (الجاثية : ١٤)

والاستغفار فى النهاية إنما هو اعتراف بذُلّ الذنب وضعف النفس ، فهو دخول إلى الله تعالى من باب الضعف ، وهذا أوسع الأبواب للوصول إلى رحمة الله تعالى .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

الدعوة النبوية إلى التوبة والإنابة[1]

إذا تأملت الأحاديث النبوية الصحيحة رأيت أبواب الأمل فساحاً لا تجعل اليأس يتسرب إلى نفس الإنسان مهما كانت خطاياه ؛ لأن رحمة الله واسعة تتقاصر عنها الذنوب ، ولهذا لا ينبغي أن يستعظم إنسان ذنبه فيظن أن رحمة الله ومغفرته عاجزة عن مغفرة هذا الذنب ، لأن هذا اليأس يفضي إلى الكفر فليتنبه كل منا إلى ذلك .

وقد روى مسلم عن أبي موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » .

وبسط اليد كناية عن الأمل في التوبة وقبولها مع سعة وتفضل ، وذكر الليل والنهار لبيان أنه لا وقت للتوبة ، فمن أخطأ بالليل ثم تاب يجد باب التوبة مفتوحاً فإذا أخر التوبة إلى النهار قبلت منه ، وإن أخرها إلى أي وقت بشرط أن يكون قبل وقت الإلجاء وهو ساعة الغرغرة إذا بلغت الروح الحلقوم ورأى أو عاين الملائكة حينئذ لا تقبل التوبة .

قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ (الأنعام : ١٥٨)

في هذا الوقت لا تُقبل توبة التائب .

وإذا تأملت حديثاً آخر لرسول الله ﷺ لوجدت أوسع الأبواب للأمل في رحمة الله تعالى قال ﷺ : « إن من قِبَل المغرب لَباباً مسيرة عرضه أربعون عاماً أو سبعون سنة ، فتحه الله عز وجل للتوبة يوم خلق السموات والأرض فلا يغلقه حتى تطلع الشمس منه » رواه الترمذي في حديث ، والبيهقي واللفظ له ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

وقد روى ابن ماجة – بإسناد جيد – عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لو أخطأتم حتى تبلغ السماء ثم تبتم لتاب الله عليكم » .

وروى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا تاب العبد من ذنوبه

---

(١) أحاديث الباب من كتاب « الترغيب والترهيب » للحافظ المنذري ، وكتاب « التوبة والزهد » .

أنسى الله – عز وجل – حفظته ذنوبه وأنسى ذلك جوارحه ومعالمه من الأرض حتى يلقى الله يوم القيامة وليس عليه شاهد من الله بذنب » .

وهذا من لوازم التوبة – والله أعلم – فإذا تاب العبد محا الله تعالى الذنب الذى اقترفه ؛ ثم تزول الشهود أو قل تمحى الشهادات والمستندات الدالة على ارتكاب الذنب والتى تدين العبد ، وهذا إطماع فى الفضل حتى إن العبد التائب إذا قرأ كتابه يوم القيامة لا يجد الشهود والمستندات فيزداد فرحاً ، أما لو وجد هذه الأمور فقد يسبق إلى وهمه أن توبته غير مقبولة ؟

أخى القارئ .. لو أردنا أن نسترسل بك فى هذا الأمر لطال بنا الحديث ، ولعل فيما أوردناه من الإشارة كفاية ، والحمد لله رب العالمين .



لعلنا قد وضحتْ فى أذهاننا الآن صورة مجملة عن الخطيئة والخلاص منها فى مفهوم الديانات الثلاث – اليهودية والمسيحية والإسلام – ولعلنا قد رأينا اتّساق الفكرة الإسلامية مع العقل ، ومقتضى القدرة الإلهية التى لا تتناقض مع العقل .

كما أنها ارتفعت عن العنصرية والعصبيات ، ولم تدخل فى تهاويم الواهمين ، وإنما قررت حقائق كبرى ، وفتحت الباب واسعاً بلا واسطة إلى رحمة الله ، وارتفعت على شعور النقص فى الإنسان فتسامت به ، وعدّلت من جوانبه ، ليكون عاملاً إيجابياً فى الفوز فى الدنيا والآخرة ، وأخيراً نذكّر بقوله تعالى :

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِى أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .
(يوسف : ١٠٨)



الفهرس

الموضوع — الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة



رقم الإيداع : ١٤٩٨٦ / ٩٨
الترقيم الدولى : 7 - 098 - 262 - 977

دار البشير - القاهـرة
للطباعة والنشر والتوزيع
١٤٥ طريق المعادى الزراعى ص. ب ١٦٩ المعادى ت : ٥٢٤٣٦٨٧ ٥٢٥٢٣٩٠

هذا الكتاب

- خلق الله الإنسان وفى نفسه نوازع الخير ونوازع الشر، وكُتِبَ عليه نصيبه وحظُّه من كليهما ، فمنذ معصية آدم عليه السلام الأولى وأبناؤه يخطئون ، وهذا لا بد واقع سبق به علم الله .
- ولكن .. هل يستسلم الإنسان لهذا الخطأ أو لهذه المعصية وهذه الخطيئة ؟ وكيف يتخلص منها ؟
- فى الحقيقة أن الأديان كلها عالجت هذه النقطة ، وبحثت كيفية تخليص الإنسان من الخطيئة ، ورفع هذه الأغلال عنه .
- وهذا الكتاب يستعرض مواقف الأديان (اليهودية - المسيحية - الإسلام) من « خلاص الإنسان من الخطيئة » .
- ونرجو أن لا يُصدم القارئ عندما يصل إلى نتيجة مؤداها أن من هذه الأديان أدياناً عنصرية تحكّمت فيها عنصريتها عند تقرير الخلاص ، وبعضها كان ظالماً أشد الظلم .
- هذا ما ستعرفه أخى القارئ على صفحات هذا الكتاب .

دار البشير

دار البشير - القاهـرة
للطباعة والنشر والتوزيع
١٤٥ طريق المعادى الزراعى ص. ب ١٦٩ المعادى ت : ٥٢٤٢٦٨٧
٥٢٥٢٣٩٠